رواية

خرونوس

محمد عبد المُحسن

الطبعة 2

ساحر الكتب للنشر والتوزيع

الإسكندرية - ١٩٧٦

- لا ترفع عينك عن كرّاسك يا (رضا)..

أدار (رضا) وجهه نحو والده في صمت مُتطلعًا إليه بعينين مليئتين بالأسى والحُزن قبل أن يُلقي نظرة أخيرة على الأطفال المُنتشرين على ناصية الشارع القريبة.

بعضهم اشتعل بروح التنافس وهم يتسابقون بدراجاتهم الجديدة اللامعة بينما انشغل البعض الآخر بتقاذُف كرة قدم فيما بينهم، ترتفع صيحاتهم المرحة عاليًا لتصل إلى (رضا) الذي جاوبهم بابتسامة مريرة ارتسمت على شفتيه وحفرت طريقها في قسماتِه الصغيرة التي شهدت من يومها عبوسًا أكثر منه فرح.

ذابت الابتسامة سريعًا وكأنّها لم تعتد المكوث طويلًا، قبل أن يحني رأسه مرة أُخرى على الكراسة المُهترئة المفتوحة على لوح من الكرتون المُتّسخ مفرود أمامه على قالبين من الطوب الأحمر، ويُمسك قلم رصاص صغير جدًا بأصابع نحيفة جائعة ليسوا أقل اتّساخًا من اللوح نفسه، ويبدأ في مُحاولة نسخ حروف مطبوعة في الكراسة في الفراغ المنقطّ المُخصص لهم أسفل كل حرف.

لم يفُت على (سعد) نظرات ابنه الحزينة التي يختلسها إلى

الأطفال وهو يتظاهر بالتركيز في واجبه المدرسي ولكنه لم يكرر كلامه إليه، بل اكتفى بالتطلع إليه في حزن وقلبه يعصره الأسى هو الآخر على حاله.

كان يُدرك إحساسُه جيدًا..

لم يُرد أن يكون هو والزمن عليه..

طفل المفروض أنّه مُفعم بالنشاط يتوق إلى اللعب مع من هم في سنه، ولكن كيف لمَن مثلهم أن يسمحوا لابن ماسح الأحذية أن يشاركهم اللعب؟

أدار عينيه هو الآخر نحو الأطفال وأخذ يُتابعهم يمينًا ويسارًا وذووهم يُراقبونهم من الشُرفات الأنيقة وهو يتساءل في سره عن الحكمة في توزيع الرزق بهذه الطريقة؟

ما العدل في أن طفل برئ مثل ابنُه يقضي طفولته بملابس مُرتّقة على الرصيف بجانب صندوق مسح أحذية قديم يقتات منُه رجلٌ مثلُه قد تُخطئ بينه وبين كومة من الملابس المُلقاة في ركن أحد الشوارع، بدلًا من ارتداء أجمل الملابس واللعب بأغلى الألعاب مثل من هم على شاكلته؟

هو لا يحقد عليهم..

إطلاقًا..

كيلا يُسئ الظن من قد يستمع إلى أفكاره، هو فقط يُريد الأفضل لابنه..

مثله مثل أي أب صالح لم تُساعده الظروف..

حاول أن يشغل نفسَه فأخذ يعبث بصندوقه وهو يفرد خرقة من القماش أمامه يستخدمها في مسح الحذاء بعد الورنيش لتلميعه، ويُحكم إغلاق عُلب الورنيش نفسها بجميع ألوانها ويُرتّبها في أماكنها مُستسلمًا لأفكاره التي ظلت تُداعب أوتار مشاعره تجاه ابنه.

ظهرت بدون قصد منه بعض العصبية في حركاته وهو يحاول ألّا يبدو على ملامحه أي مما يعتمل بداخله أمام (رضا)، وهو يُقاوم دمعة ظلت تبذل قُصارى جُهدها لتفر من مقلته، سُرعان ما نجحت في هزيمته وانسابت في صمت على وجنته، فأشاح بوجهه للناحية الأُخرى وهو يمسحها بطرف كمه بسرعة قبل أن يراه.

رحلت أُم (رضا) مُبكرًا، وتركتُه وحيدًا في بؤسِه.

ولكنّه النصيب..

نَجَدَهُ في نفس اللحظة قدوم رجل مُهندم، ذو وجه بشوش يرتدي بذلة ويحمل بيده حقيبة جلدية صغيرة، يُريد أن يُنظّف حذائُه المُتّسخ.

رسم (سعد) ابتسامة واسعة مُجاملة على شفتيه وهو يقول بلهجة حاول أن يجعلها مُرحبّة قدر المُستطاع:

- أهلًا أهلًا (سامي) أفندي، (عاش من شافك)، ميعاد التنظيف اليومي، ضع حذائك هنا، سأُعيدُها كما كانت يوم اشتريتها، كالعادة.

ارتسمت ابتسامة شبيهة على وجه المدعو (سامي) وهو يرفع قدمه اليُمنى على المكان المُخصص لها من صندوق الأحذية، وهو يُشير لـ (سعد) بيده قائلًا:

- كيف حالك يا (سعد)؟ أين اختفيت الأسبوع الماضي يا رجُل وتركتني بحذاءٍ مُتّسخ؟

ثم أدار وجهه نحو (رضا) وهو يُتابع بلمحة حانية:

- وأنت يا (رضا)، كيف حال المُذاكرة؟

رفع (رضا) عينيه إليه بنظرة خاوية دون أن يجيب، ثم تابع محاولاته في الكتابة تتخلّلها بعض النظرات المُختَلَسَة للأطفال كما كان، في الوقت الذي أجاب فيه (سعد) بمُجاملة:

- الحمد لله يا بيه، الحال عال ومستورة الحمد لله، كُنت أجرّب حظّي في قهوة هندي، الحاج هناك كريم لا يرُد محتاج و(رضا) يُذاكر بجد لكي يُصبح طبيبًا ماهرًا، ربّما

ليُعالج والده العجوز يومًا ما.

- هاهاها، استغلالي أنت يا (سعد) كعادتك.

- وهل يُصلب عود الرجل إلّا بولدٍ صالح يا سعادة البيه؟

رد (سعد) بابتسامة مُنكسرة لم يُلاحظها (سامي)، فهو لم ينسَ أفكاره من دقائق قليلة.

بالرغم من ظلام المُستقبل في عينيه وكآبة الحاضر بمآسيه، كان مؤمنًا أن هناك دومًا أمل في شيء أفضل وإن كان لا يعرف ما هو بعد.

رُبّما هي النشأة الدينية التي تُميّز أصحاب الطبقة الفقيرة..

كل شيء نصيب والله يدّخر الأفضل دومًا..

على الأقل هذا ما كان يُعطيه القوّة للاستيقاظ اليوم التالي..

والاعتناء بـ (رضا) المسكين بالطبع..

كل هذا و(رضا) يستمع بنصف تركيز للحديث الذّي يدور بجانبه..

لا يهتم كثيرًا لكلام (الكبار)..

كان جلّ ما يُريد هو أن ينتهي من واجبه ويتفرّغ لمُشاهدة

الأطفال من على بُعد كعادته، فرُبما ينسى أحدهم إحدى ألعابه مثلما حدث مُنذُ بضع أسابيع عندما ذهب ليتفقّد الساحة بعدما انتهوا من لعبهم ليجد كرة صغيرة تاهت من أحدهم لتظل رفيقته لمدة أسبوعين كاملين قبل أن تمر عليها سيارة عابرة تساويها بالأرض.

يعلمُ جيدًا أن هذا هو أقصى ما يُمكن أن يحلُم به، فأبوه المسكين لا يملُك ثمن لعبة واحدة من ألعابهم، ليس بالملاليم التي يجنيها على أية حال.

وبالتأكيد رغيف الخبز أهم من لُعبة له.

دومًا ما يُردد أبوه، أن بمُذاكرته سيغدو أفضل من كل هؤلاء الأطفال ويشتري كل ما يحلو له، سيكبر ليُصبح طبيبًا أو مُهندسًا..

لا بل طبيب، طبيب.. هو يُريده طبيبًا، نعم.. بالرغم من أنّه لا يفهم ما معنى أن يكون طبيبًا سوي أنّه يجعل المرضى يشعرون أنهم أفضل.

هو نفسه لا يعرف ماذا يُريد أن يكون..

يعرف فقط أن أبوه يُريد أن يتباهى به أمام الجميع.. الطبيب ابن ماسح الأحذية.

ليت أمه كانت موجودة، لربما كان حاله أفضل، دائمًا ما يسأل نفسه، لم أخذها الله عنده وهي تلده؟ لم هو؟ هل لأنـ..

«وششششششش»

انتفض (رضا) في مكانه وقد انقطع حبل أفكاره مع لمعة ضوء يُشبه فلاش الكاميرا والذي صاحب صوت الطرقعة الذي سمعه يصدُر من داخل الزُقاق القريب.

وطبعًا بالنسبة له هذا أكثر من كافٍ ليجذب انتباه طفل بعيدًا عن كُراسه المُهترئ وكرتونته الكئيبة، فتركهما ووقف في مكانه وهو ينظُر لأبيه الذي كان ما يزال مُنهمكًا في مسح حذاء المدعو (سامي) مُتظاهرًا بالاهتمام بما يقول على أمل أن يزيده هذا في (البقشيش).

عاد (رضا) بناظريه إلى الزُقاق مرّة أُخرى وفضوله يكاد يقتله، فتحرّك خطوتين للأمام تجاهه ثم توقف على صوت أبوه بنبرة روتينية:

- إيّاك يا (رضا)، لا تتحرك من مكانك.

نظر (رضا) لأبيه وهو يهُم أن يعترض فرآه قد عاد بانتباهه لـ (سامي) بعد أن ألقى عبارته بدون اهتمام حقيقي علمًا بأنه بالفعل لن يتحرّك من مكانه.

في الطبيعي كان (رضا) طفلًا مطيعًا..

ولكن فضوله هذه المرة كان أقوى من تحذيرات أبيه..

فتحرّك بخطوات حثيثة نحو الزُقاق وصوت ضربات قلبه يتردّد في أُذنيه حتّى وصل لطرف الزُقاق واستند على الحائط بكفّيه الصغيرتين، ثم مال بجسده قليلًا ليُلقي نظرة فضولية على الممر الضيق شبه المُظلم اللهم إلّا من مصباح صغير وحيد يتدلّى من سلك يمتد بين شُرفتين ويُلقي ضوءًا أصفرًا يزيد المكان كآبة..

دار بعينيه في المكان كلّه، فلم يجد شيئًا غريبًا..

فقط رائحة غريبة تملأ المكان وكأنها رائحة شياط أو بلاستيك مُحترق و...و... ما هذا...؟

هناك قُرب حاوية القمامة..

شيءٌ ما أبيض اللون لا تبدو ملامحه من هذه المسافة ولكن..

يبدو وكأنّه يُحيط به شرارات زرقاء تبدو جميلة في عيني (رضا) الذي سال لُعابه من المنظر..

لف برقبته ليُلقي نظرة على أبيه فوجده على حاله مع ذلك الرجل، يولِيه عناية بالغة..

فقرر (رضا) أن يأخذ المُخاطرة وخطى بحذر داخل الزُقاق الضيق مُتجاهلًا الرائحة..

لن يُضيّع هذه الفُرصة أبدًا..

كانت الشرارات ما تزال تنبعث من كل مكان حول ذلك الشيء الذي بدأت تبدو معالمه أوضح كلما اقترب منه (رضا) ليبدو وكأنه..

إنها طائرة...!

ذلك الشيء هو طائرة لُعبة...!

ووهووو، تُرى هل سمعت أمّه تضرعه فأرسلت له لُعبة من الجنّة؟!

هكذا فكّر في نفسه (رضا)..

كان والده دومًا يُخبره أن دُعاءه لأمه يصلها في الجنّة ولكنّها لا تملك القُدرة على الرد..

هل هذا هو ردّها إذًا...؟!

تسارعت ضربات قلبه في إثارة..

كانت الشرارات الزرقاء الجميلة قد اختفت وساد السكون المكان..

يا إلهي.. الطائرة تبدو مُغرية للغاية وهي مُلقاة على جانبها هكذا..

كانت تُشبه الطائرات التي تخلب لبه في السماء كلما رآها، بيضاء اللون ذات علامة زرقاء على الجانب، وعليها كلمات مطبوعة لا يفهمها (رضا)..

فقط استطاع أن يتعرّف على حرف الـ A مثل كلمة Apple يعني تُفّاحة والأرقام ٣ و٣ وصفر..

مثل تلك الأرقام في كرّاسه..

A٣٣٠

لا يعرف ماذا يعني هذا ولكنه لا يهتم..

الآن صار لديه لُعبة خاصة به، لُعبة لا يملُكها أي من هؤلاء الأطفال المُدلّلين...!

التقطها (رضا) بحرص وهو يُقلّبها بين يديه الصغيرتين، كانت طويلة ولها قاعدة تستقر عليها محفور عليها رقم ٢٠ مُكرّر مرّتين وأيضًا لم يفهم ماذا يعني وأيضًا لم يهتم طالما صارت ملكه..

عندما وصل بأفكاره لهذه النقطة، ضمّها بشدة لحُضنه وهو يلتفت حوله وينظر للأعلى خشية أن يظهر أحد ما ويدّعي

ملكيّتها..

كان الزقاق ما يزالُ خاليًا كما كان، مما شجع (رضا) أن يُبعدها عن صدره ثانيةً ليتمّعن النظر إليها مرّة أُخرى وهو يُحرّكها في الهواء ويُصدر صفيرًا من فمّه مُحاكيًا صوتها..

سرقه الوقت وهو واقف تائه في جمال لعبتُه الجديدة وقد نسى تمامًا واجبه المدرسي ونسى أباه ولم يُعِده إلى أرض الواقع إلّا صفعة نزلت على (قفاه) كالصّاعقة فشهق في قوة وهو يحتضن الطائرة ويلتفت إلى أبيه الذي اشتعلت عيناه غضبًا وهو يلوح في وجهه بعصا صغيره صائحًا:

- أيها الأحمق...! ماذا قُلت عن الابتعاد عن ناظري...! كدت أن تُصيبني بسكتة قلبية...!

لم يرد (رضا) بل ازداد تعلّقًا بلُعبته الجديدة في خوف..

- وما هذا الذي تحمله في يدك...؟! لُعبة...! من أين حصلت عليها...!

كان (سعد) مُتأكدًا أن ابنه ليس بسارق، ولكن أنّى له أن يأتي بمثل هذه اللعبة التي تبدو ثمينة، لا تتناسب مع يد (رضا) الفقيرتين، فأمسكه من ياقته وهو ينهره بعُنف:

- قل لي يا ولد، من أين أتيت بهذه اللعبة...؟ هل أخذتها من

أحد هؤلاء الأطفال...؟!

- لا والله يا بابا، لقد وجدتها هنا مُلقاة بدون صاحب، لقد سقطت من السماء..

أخذها (سعد) من يديه ليتفحصها أمام نظرات (رضا) المُلتاعة خشية أن يفقدها وهو لم يكد يفرح بها..

تطلّع إليها (سعد) في ريبة وهو يُديرها بين أصابعه..

غريبة لم يبدُ عليها أنّها مُستعملة..

تبدو لامعة ونظيفة وبدون أي أسماء عليها..

(سعد) هو الآخر بالكاد يستطيع أن يقرأ كلمات بسيطة فقط، لذلك استطاع أن يتعّرف على رقم A٣٣٠ مطبوع من الجانب هو الآخر وبالأسفل على القاعدة محفور م. ط. ٢٠٢٠..

مثل (رضا) لم يفهم ما تعنيه تلك الأرقام والحروف ولكّن على الأقل هذا يُؤكّد كلام الولد أنها لا تنتمي لأي من هؤلاء الأطفال وإلّا كانت قد حملت اسم صاحبها عليها كباقي الألعاب..

هدأ (سعد) قليلًا ثم أشار بها لـ (رضا) وهو يشدّه من ذراعه نحو الشارع الرئيسي حيث كانا يجلسان في البداية عند صندوق مسح الأحذية وهو يقول في حزم:

- حسنًا، ربما وقعت من أحد المارة، لذلك سأدعك تحتفظ بها شرط أن نُعيدها لصاحبها إذا ما سأل عليها أحدهم..

ثم تابع في صرامة وقد تذكر شيئًا:

- نعم، ولن تأخذها حتّى تنتهي من واجبك المدرسي أولًا.

انطلقت صيحة فرحة من بين شفتي (رضا)..

في الحقيقة لم يهتم كثيرًا بأي شيء آخر طالما سيحتفظ بلُعبته في النهاية..

كانت عيناه مُعلقتان عليها وهي تتأرجح في يد أبيه ذهابًا وإيابًا وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة بلهاء حالمة.

طائرة كتلك التي تطير بين السُحب صارت بين يديه..

الآن فقط عرف ماذا يُريد أن يكون عندما يكبُر..

القاهرة – الوقت الحالي

عمّ صمتٌ مُطبق أرجاء المنطقة في تلك الساعة المتأخرة من الليل، واختفت الأصوات تمامًا اللهم إلّا من صوت صرصور حقل هُنا يرد على آخر هناك، وكلبٌ يعوي في مكان ما بحثًا عن أُنثى.. يُسامرها.. قبل أن يشُق السكون صوت مُحرّك سيارة ڤان تخترق شوارع الضاحية ببُطء مُستترة بالظلام تارّة وتظهر تحت ضوء أعمدة الإنارة تارّة أُخرى.

توقفت السيارة على ناصية الشارع بعد رابع دورة حول ذلك المربع السكني وسكت مُحرّكها ليعُم الصمت مرّة أُخرى ويُصبح المكان لوحة ساكنة باهتة بلون ضوء أعمدة الإنارة الباهت لا يتحرّك فيها سوى دخان سيجارة ينساب طافيًا للأعلى من نافذة السائق الأمامية وهو يجلس بداخلها في هدوء لا يكادُ يُحرّك ساكنًا..

فقط ينتظر...

***

زفر (محمود) في ضيق للمرة العاشرة وهو يتطلع إلى طابور السيارات المتكدسة أمامه في ذلك الشارع الجانبي من أحد أحياء القاهرة، قبل أن يتململ في مكانه وهو يُحكم إغلاق النافذة الجانبية بعد أن تجمّدت أذنه من الهواء البارد..

كانت سيارته في مُنتصف الطابور في الصف الرّابع من تقاطُع الشارع الرئيسي، أيّ أنه محبوس في تلك البُقعة شاء أم أبى..

وكان يكره الانتظار كُره الموت..

رُبّما ليس بنفس مقدار كُرهه للاستيقاظ مُبكرًا، خصوصًا إذا تضّمن هذا الاستيقاظ تركه للفراش الدافيء والنزول إلى الشوارع يوم أجازته السّاعة العاشرة صباحًا..

وعلى حظّه العثر كان يومًا كئيبًا اختفت فيه الشمس وراء غطاء سميك من السُحب الرمادية التي أنذرت بيوم أكثر برودة من المُعتاد مع احتمال كبير أن تُمطر، مما زاد إحساسه بالندم لأنه وافق على النزول فقط كي لا يكسر كلمته أمامهم..

مُنذ متى كان يهتم بمنظره أمام أطفالُه..

مطّ شفتيه في ملل وهو يرفع يده ليضبط مرآة الصالون ويُلقي نظرة على الطابور الأطول الذي يصطف خلفه وسائقوه يرسمون نفس نظرات الملل والضيق على وجوههم مُنتظرين جميعًا فتح الطريق إلى الشارع الرئيسي بعد أن أغلقته قوات الأمن مع بعض عناصر الشُرطة العسكرية في سبيل تأمين موكب وزير دفاع دولة ما أجنبية في زيارة له

في القاهرة..

لو كان يعرف أن هذا سيكون الوضع لما خطى خطوة واحدة خارج غرفة النوم..

حانت منه إلتفاتة إلى الكنبة الخلفية حيث يرقُد وحشاه الصغيران وقد غلبهُما النُعاس من الانتظار وهذا بالتأكيد من حُسن حظّه بعد أن ملآ السيارة صُراخًا وعويلا قبل أن يناما على جبل صغير من بقايا ساندويتشات الإفطار مع فن سريالي من بُقع العصير التي لطّخت فرش السيارة، قُنبلة موقوتة وانفجرت على المقعد الخلفي.. ساعتان من الانتظار لم يتحرّكا مترًا واحدًا..

جيد أنهما لم يطعناه في خلفية رأسه بشاليموه العصير..

نظر بطرف عينه إلى زوجته وهو يهمس بغيظ:

- أتمنى أن تكوني مُستمتعة بالنُزهة اللطيفة..

- وكيف لي أن أعرف؟ هل من المفروض أن أحفظ جدول زيارات الوزير؟

كان ردُّها باردًا ومُستفزًا لأقصى درجة، مما أثار غيظه أكثر وإن لم يُعلق واكتفى بأن نظر أمامه إلى الطريق وهو يضرب نفير سيارته بعصبية أكثر مما جعلها تستطرد بنفس اللهجة:

- اهدأ قليلًا، لا تُريد أن توقظهم بينما نحن مازلنا محبوسين هُنا..

جزّ على أسنانه أكثر وقد شعر أنه سيُصاب بالفالج من برودها اللّامُتناهي فنفّس عن غيظه بأن ظل يعتصر المقود بأصابعه حتّى ابيضت سُلّامياتهم..

ليس هذا بالمكان المُناسب للشجار..

كان أذكى من أن يبدأ المعركة في مكان لن يستطيع أن يهرُب منه، هزيمة نكراء قبل أن يبدأ..

أراد أن يلهي نفسه في أي شيء بدلًا من أن يُصاب بسكتة قلبية وتفوز هي بالسيارة من ضمن الميراث، فأدار مؤشّر الرّاديو ليُتابع الاخبار فلربّما ذكر شيء عن هذا الموكب واقتراب الفرج..

- وكانت النتيجة هي صفر واحد لصالح نادي الزمالك بعد أن أضاع مروان مُحسن ضربة جزاء مُحتسبة في الشـ...

امتعض (محمود) من الخبر وأدار المؤشّر في سُرعة وهو يسُب في سرّه، لهذا السبب بالتحديد ترك تشجيع كرة القدم وصار يميل للتنس النسائي..

على الأقل يجد ما يُملي نظره به..

- عندك حق بالتأكيد، ولكن في رأيك يا أستاذ (عصمت)، مَن مِن الأقلام الشابة قد يُشكل خطرًا عليك في مجال الكتابة؟

- في الواقع يا (عُمر) هو اسم واحد يطرأ على بالي كلّما أُسأل هذا السؤال وأحمد الله أنّه لا يُلقي بالًا للكتابة وإلّا أجلسنا جميعًا في البيت، وهو صديق يُدعى (محمد عبد المُـ..

زفر (محمود) في ملل وهو يجرّب محطة جديدة لاعنًا تفاهة البرامج التي يُتابعها الحمقى ويكسب من ورائها السُفهاء..

- وعلى صعيدٍ آخر استقبل مطار القاهرة الدولي منذ قليل، وزير دفاع (...) على رأس وفد رفيع المُستوى في زيارة يلتقي خلالها مع نظيره المصري سيادة الوزير (...).. وتأتي زيارته هذه ضمن فعاليات عمل اللجنة التي عُقدت في مارس الماضي في مدينة (شرم الشيخ) للتعاون العسكري والتقني. وقد أضاف المُتحدث الرسمي باسم وزارة الدفاع الأجنبية أن التركيز خلال اللقاء سيكون على قضايا الأمن الدولي والوضع في الشرق الأوسط فضلًا عن ماهية المو..

بتر المذيع عبارته إثر ضغطة من الزوجة على زر التشغيل وهي تُتمتم:

- شُكرًا، لسنا مُهتمّين بكل هذا طالما لن تُخبرونا متى سينتهي هذا الكابوس..

- وكيف لكِ - أيتُها العبقرية - أن تعرفي إذا ما كانوا سيقولون أي أخبار عن (هذا الكابوس) بعد الموجز أم لا؟!

كانت لهجته استنكارية وهو يلوّح بيده إليها..

لكم تمنّى أن يشُق رأسها نصفين، ولكن من يهتم بالأطفال؟

كان قد طفح به الكيل وقد صار واضحًا أنه لم يعُد يعبأ لا بالمكان ولا بالطفلين النائمين ولا بمعركة خاسرة بعد أن فقد زمام السيطرة على أعصابه وكاد أن يُكمل صياح لولا أن قاطعه صوت سرينة الشرطة وجلبة في الشارع الرئيسي على بُعد أمتار قليلة..

فرفع كلٌ منهما عينيه في لهفة إلى الطريق الذي بدأ يمتلئ بالدراجات البخارية الخاصة بقوات الشرطة وهي تحمل أعلام تلك الدولة بألوانها المميزة وهي تتقدم الموكب لتُفسح له الطريق..

يبدو أن الكابوس قد شارف على الإنتهاء..

***

اهتزّ الموبايل الصغير المُلقى على الكرسي المُجاور للسائق

وأضاءت شاشته بكلمتيّ (غير معروف) فالتقطه السائق الغامض بسرعة واضعًا إيّاه على أذنه بعد أن ضغط زر الإجابة ولم ينطق بكلمة واحدة وهو يُنصت بإمعان وعيناه تتحركان على المكان أمامه وكأنّه يبحث عن شيء ما قبل أن تتوّقف عند مكان خالي بين سيارتين وهو مازال يُنصت لمُحدّثه لثوانٍ ثم يُنهي المُحادثة بدون أي صوت ويُدير مُحرّك السيارة ويتحرّك لعدّة أمتار حتّى يصل للمكان الخالي ويركن السيارة باحتراف موازيًا للرصيف ثم يترجّل منها ويتّجه للصندوق الخلفي ليفتحه ويتطلع لمحتوياته وصوت ضربات قلبه يكاد يوقظ سكّان الشارع كلّه..

***

انطلقت صيحة انتصار عفوية قصيرة من (محمود) وهو يتأهب في مكانه وأصابعه تمتد لتُمسك بالمفتاح في مكانه في (كونتاكت) السيارة ليُديرها ليسخن مُحرّكها حتّى ينتهي الموكب الذي من الواضح أنه على وشك الانتهاء بعد أن بدأت السيارات الفارهة في الظهور تحمل لوحات دبلوماسية..

أخيرًا جاء الفرج قبل أن يقتُلها ويُسجن..

مرت السيارة تلو الأُخرى، في موكب طويل، عدّ فيهم قُرابة الأربع سيارات مُصفحّة، الواحدة منهم يؤمّن ثمنها

معيشة عدة أُسر قبل أن تظهر واحدة يُعادل ثمنها الأربع سيارات معًا، بزجاج مُعتم يعلوها جسم ضخم مُستطيل يحتل مساحة سقفها كلّه، ويبدو كقارب صغير مقلوب خمّن (محمود) أنه يحتوي على أجهزة إرسال واستقبال أسفل ذلك الجزء المُصفّح..

كان من الواضح أن هذه هي سيارة الوزير الزائر..

التفتت زوجته تلكز الأولاد في أرجلهم وهي توقظهم ليُمارسوا مُهمتهم الدائمة في الصياح والعويل في الوقت الذي كان (محمود) قد أدار مُحرّك السيّارة وهو يضرب نفيرها ليحثّ السائقين على الاستعداد للحركة بدورهم فور انتهاء الموكب الذي يمُر ببُطء وكأنّ السيارات مُتعمّدة أن تقتل السائقين مللًا..

كانت السيّارة التي خمّن أنّها سيّارة الوزير قد مرّت بالفعل من أمام ناظريهم عبر ناصية ذلك الشارع الجانبي في طريقها في الشارع الرئيسي ومن خلفها سيّارتان مُصفّحتان تمُرّان لتأمين مؤخّرة الموكب..

قبل أن يتباطئ الزمن للحظات..

***

انتهى السائق من العبث ببعض الأزرار التي تتّصل بلوحة

صغيرة يخرج منها خرطومان طويلان ينتهيان إلى وعائين بلاستيكيين بهما سائلين مُختلفي اللّون، أحدهما أزرق والآخر أصفر مُتّصلين بدورهما بشاشة إلكترونية صغيرة بجانبها فراغ مُستطيل الشكل في حجم ريموت صغير. التقط من جيبه هاتفًا صغيرًا ودسّه في الفراغ الصغير وأوصله بقابس من الأسفل ينتهي إلى الوعائين والشاشة الإلكترونية، ثم أخرج الهاتف الذي كان يتحدّث فيه منذ قليل وضغط زر الإتصال فيه على آخر رقم اتّصل به فأضاءت شاشة الهاتف الصغير وظهر عليها الرقم ١٠ وبدأ عدّ تنازلي كل ثانية، فأغلق السائق الخط ليتوّقف العد التنازلي وينطفئ ضوء الهاتف وتنطفئ الشاشة تمامًا وهنا ارتسمت ابتسامة مُتوترة ظافرة كسرت جمود وجهه قبل أن يتراجع بظهره ويُغلق باب صندوق السيارة..

***

نظرات سائقي السيّارات مُتعلّقة بالموكب وراحات أيديهم تتناوب على إطلاق نفير سياراتهم في استعجال..

***

توّقف السائق للحظات وهو ينظر حوله وعلى الشُرفات ليتأكد من عدم وجود أحد ما..

***

عناصر الشُرطة على جانبي الطريق يقبضون على أسلحتهم مُتحفّزين لأي حركة مشبوهة في الوقت الذي انتشر فيه رجال ذوو نظرات صارمة وملابس رسمية يتفحّصون المارّة عبر الطريق ونوافذ وشُرفات البيوت المُطلّة على الشارع..

***

تحرّك بخفّة لجانب السيارة وكشط جزءًا من طلائها بأظافره ليكشف طرف شريط لاصق عريض يُغطّي جانب السيّارة بأكمله، وينتزعه بسُرعة..

***

(محمود) يلتفت لزوجته صائحًا فيها لتهدأ قليلًا من شجارها مع الأطفال نصف النائمين..

***

توّقف وهو ينظر إلى شعار تلك المحطة الإخبارية الشهيرة الذي ظهر أسفل الشريط اللّاصق وقد صارت السيارة تبدو كواحدة من أسطول سيّاراتهم..

***

طائر ما يُحلّق مُبتعدًا لمكان أكثر هدوءًا بعيدًا عن

الضوضاء والزحام..

***

أشعل سيجارة أُخرى والتقط نَفَسًا عميقًا منها ثُم ألقي نظرة سريعة على البيوت القريبة قبل أن يستدير واضعًا يديه في جيب معطفه ويسير مُبتعدًا دون أن ينظر ورائه..

***

لحظة من الصمت التّام..

ثم ارتجّت المنطقة كلّها بانفجار سحق المُربّع السكني بأكمله..

***

القاهرة – قبل أيام

فتح (شريف) عينيه ببُطء وهو يتطلّع إلى السقف فوقه في جمود..

شعور غريب بالخدر يتخلّل أوصاله، لا يكاد يشعر بأطرافه ودوار عنيف يكبّل رأسه ويُحيط به إحاطة السوار بالمعصم، لا يتذكّر آخر مرّة شعر فيها بمثل هذا الشعور، والأغرب أن جسده فقط هو ما يختبر هذا الشعور في حين أن عقله يقظٌ كالفهد، يكادُ يشعر بكل تفصيلة في الغرفة التي يستلقي فيها..

ذرّاتُ الهواء تطفو على استحياء في كل ركن من أركان الغُرفة من حوله، يُمكنه أن يُقسم مُطمئنًا أن بإمكانه عدّهم ذرّة ذرّة، بطرف عينه يلمح ضوءًا خفيفًا أبيض يميلُ إلى الزُرقة يأتي من الشُرفة نصف المُغلقة يُبدّد القليل من ظلام الغُرفة ليرى على إثره حدود الموجودات، حاول أن يُحرّك ذراعيه ليكتشّف أنهما ثقيلتان كالرصاص، لا يستطيع زحزحتهما من مكانهما فقط استطاع أن يتلاعب بأصابعه قليلًا.

حتّى الآن لا يفهم ما به ولا لم هو في مثل هذه الحالة ولكنّه حاول أن يسترخي أكثر في مكانه حتى يزول شعور

الخدر الذي يُثبّته في سريره..

لم يشعُر بالخوف، رجلٌ مثله توّقف عن الشعور بالخوف منذ زمن..

استرخى أكثر وأغمض عينيه وهو يسرح بأفكاره أكثر وأكثر في محاولة لتفسير هذا الذي يشعُر به، فأخذ يسترجع كل ما مرّ به وكل ما اختبرُه من قبل..

هل هو شلل النوم؟

حاول أن يسترجع ما يعرفه في المُعتاد في مرحلة النوم التي يُصاحبها أحلام، يحدُث للجسم ارتخاء كلّي للعضلات في الوقت الذي يستمر فيه العقل في العمل بنشاط غارقًا في عالم الأحلام، وتستمر حالة الارتخاء هذه حتّى أثناء انتقال العقل من مرحلة النوم الحالم إلى النوم غير الحالم ومنها إلى الاستيقاظ التّام وعليها يستيقظ العقل من النوم ولكن لا يستطيع السيطرة على الجسم الذي يظل فيما يُشبه الشلل المؤقت والذي يستمر ما بين ثوانٍ إلى عدّة دقائق..

وهو على هذه الحال ما يُقارب العشر دقائق..

أي أنه سيستعيد السيطرة على جسمه في أي لحظة الآن..

وبالفعل ما إن وصل تفكيرُه لهذه النُقطة حتّى بدأ يشعُر

بوعيه يصفو شيئًا فشيئًا ففتح عينيه وهو يرفع يده اليُمنى بِبُطء فارتفعت معه بصعوبة في البداية ليعتصر بها جبينه في محاولة لتحفيز الدم على الجريان في دماغه..

تأوه وهو يعتدل بصعوبة بالرغم من جسده الممشوق وتكوينه العضلي الواضح، فما زالت آثار النوم مُسيطرة عليه فاكتفى بالاعتدال والجلوس في مكانه لدقائق حتّى تأكد من أنه بكامل وعيه وأصبح مُدركًا لما حوله، وأدرك أي وقت كان هذا..

كان وقت السيجارة..

تناول عُلبة سجائره من على الكومود وسحب منها سيجارة وضعها بين شفتيه وهو يلتقط قداحة تعمل بالبنزين منقوشة بشكل زُخرفي جميل..

التقط هاتفه المحمول من جانب عُلبة السجائر وفتحه ليرى إذا ما جاءته أي رسائل أو إشعارات من العمل.. لم يستطع أن يُقاوم فكرة أن يُغلقه قبل أن يأوي إلى السرير على الرغم من أنّه كان يُدرك مدى أهمية أن يكون مُتاحًا على مدار الساعة وتحت أي ظرف ولكن ما حدث الليلة كان غريبا بكل المقاييس، لم يسبق له أن سقط في سُباتٍ عميق لدرجة أنّه يستيقظ بهذا الإرهاق والتعب كأنّه قد تم دهسه بقطار بضائع..

ثم هذا الإعياء.. لا يتذكّر أنه أكل شيء ما غريب البارحة، لم يتناول سوى ساندويتش دجاج في المكتب وهو يُطالع بعض التقارير، ولما عاد إلى منزله اكتفى بكوب من الشاي مع سيجارة قبل النوم وهو يُنهي بعض الأعمال المكتبية الخاصة باليوم.

مازال يجد تلك الأعمال مُملة وثقيلة على قلبه، لم يعتد بعد نظام العمل الجديد بعد انتقاله لذلك القسم من المُخابرات الذي أنشؤوه حديثًا، كان من ضمن أول دُفعة تفتتح الشريط..

قسم يضُم أبرز وأكفأ العناصر الشابة من القيادات المُختلفة، من الجيش والبحرية والجوية وغيرهم، كان (شريف) أحد هؤلاء العناصر والذي تم تجنيده من أحد فروع الجيش لما أبداه من شجاعة وإقدام وولاء لقيادته بالإضافة إلى عقليته التحليلية المُرتّبة والتي بدت جلية في طريقة تعامله مع القضايا التي وكّلت إليه بعد تجنيده في ذلك القسم.

حمد الله أن هاتفُه كان مُغلقًا وبالتّالي كان خاليًا من الإثارة..

قليل من الراحة لن يضُر..

ولَكَمْ أشتاق إلى (ميرنا)..

تحرّكت عيناه لصورة فتاة صغيرة تلعب مع قطّة صغيرة في إطار رقيق يرتكز على الكومود جانب السرير وفاضت عيناه بالأسى..

ابنته الصغيرة التي كسبت طليقته قضية حضانتها بعد أن أثبتت أمام المحكمة أنه غير أهل لاحتضانها، لاعبةً على كارت إهماله لبيته ولأسرته في سبيل عمله وتغيّبه عن المنزل بالأيام، الأمر الذي بدأ بمُلاحظات عابرة فضيق فكلام ثم شجار وأخيرًا قرار بالطلاق وتنفيذ صارم، والآن هو محرومٌ من رؤية ابنته إلا مرة كل أسبوعين وفي وجود فرد من أسرة زوجته في منزلها.

سحب نفسًا أعمق وحبسه في صدره لثوانٍ قبل أن يُخرجه مُحملًا بمرارة الدنيا..

لم يُرد أن يسترسل في أفكاره السوداوية وإلّا لن تنتهي الليلة على خير..

تذكّر السيجارة التي تتدلّى من بين شفتيه، فترك الهاتف مكانه وقام من مكانه وهو يلتقط منفضة السجائر ويتجّه نحو الشُرفة..

أمسك مقبض بابها ليفتحه قبل أن يتسمّر في مكانه

ويُقطّب حاجبيه وهو يتذكّر الضوء الغريب الذي رآه يُنير الغُرفة وهو مُخدّر منذ دقائق، كان قد نسيه تمامًا في خضم أفكاره وتذكّره الآن..

فتح الباب ببُطء وتقدّم إلى السور وهو يُحدّق في الظلام الدّاكن، يبدو أن الكهرباء مقطوعة عن المنطقة كلّها وهذا ما فسّر الظلام الدامس من حوله على غير العادة، إذًا من أين أتى هذا الضوء، وبعيدًا عن ذلك لم يجد شيئًا مُلفتًا للانتبـ..

ما هذا...؟!

ضيّق عينيه وهو يميل قليلًا إلى الأمام ويُمعن النظر في الأُفق.. خُيّل إليه للحظة أن السماء التمعت بضوء خافت عند أطرافها كقبّة أحاطت بها وسرعان ما اختفى في جُزء من الثانية لدرجة أن (شريف) لم يُصدّق عينيه واعتقد أن ما رآه هو من تأثير النوم.

ظل على وضعه للحظة قبل أن يعتدل ويتجاوز التفكير في تلك النُقطة ويُشعل السيجارة التي أوشك فلترها أن يذوب بين شفتيه ويأخذُ نفسًا طويلًا منها وهو يسرح بأفكاره في الظلام أمامه، كانت مرّة من القلائل التي ينعم فيها بالمكوث في البيت دون أن يحمل هم قضيّة ما تشغل تفكيرَه أو مشاكل يحلّها.

حاول أن يتذكّر فيما كان يُفكر قبل أن يدخل إلى الشُرفة ولكنّه فشل..

شعر بأن تفكيرَه مُشوّش وذاكرتُه مثقوبة كلّما حاول أن يُمسك طرف الخيط، انسابت المشاهد من عقله، عزى ذلك إلى تأثير النوم المُتقطّع أو إلى ما مرّ به من دقائق..

فاعتدل وهو يأخذ نَفَس آخر من السيجارة ثم يجول بعينيه في الظلام..

لفت انتباهه منظر غريب..

قبل آخر الشارع شبه المُظلم قبل بزوغ الفجر، تراءى إليه ما يبدو وكأنه كُتلة لها أبعاد، ترسم هيئة شخصين مُتكومين على جانب الطريق..

ألقى (شريف) عقب السيجارة بسرعة وهو يستند بكفيه على السور ويميل بجسده إلى الأمام في مُحاولة لتدقيق النظر، في هذا الظلام ومن هذه المسافة الأمر شبه مُستحيل التيقن من كنه هذين الخياليين..

يبدو أن أحدهم بحاجة إلى المُساعدة..

التفت يمينًا ويسارًا في محاولة لإيجاد شخصٍ ما قريب منهما ليجد شيئا آخر أكثر غرابة...!

في الناحية الأُخرى من الشارع وقُرب التقاطع حيث منزل الشيخ (مجدي)، وقف ذلك الأخير يميل بجسده مُستندًا على باب المنزل وكأنه كان يهُم بالدخول، ثم فجأةً تجمّد في مكانه أو فقد الوعي على حاله..

ما الذي يحدث بالضبط...؟!

هنا لم يجد (شريف) حلًا غير أن يُغير ملابسه ويُهرع ليرى ماذا أصاب هؤلاء الناس، ولكن قبل أن يضع قراره حيّز التنفيذ، ارتعشت أعمدة الإنارة في الشارع لثوانٍ مُنبئةٍ بعودة الكهرباء..

وفي الثانية التالية كانت قد عادت بالفعل وأضاء الشارع مرّة أُخرى وأمام أعين (شريف) المشدوهة رأى الرجلين اللذين كانا قد تكوّما على الأرض – وكانا بالفعل رجلين كما خمّن – يقفان مُستندين على يديهما، يترنّحان وكلٌّ مُنهما مُمسكًا رأسه بيده لثوانٍ وكأنّه يُعاني من الصُداع قبل أن يتجّه كلٌّ مُنهما في طريقه في جمود بحركة شبه آلية دون أن يبدو عليهما أنهما تبادلا أي كلمة..

كل هذا أمام أعين (شريف) الذي لم يستوعب ما رآه..

تذكّر الشيخ (مجدي) فالتفت ناحية بيته بسُرعة ليجد نفس المنظر والشيخ قد أفاق من غيبوبته ووقف جامدًا

في مكانه مُحدقًا في الفراغ للحظات، وهو يرفع يده مُمسكًا برأسه هو الآخر ويعدل عمامته قبل أن يمد يده بحركة آلية ليفتح باب المنزل ويختفي في المدخل ويُغلق الباب خلفه..

ماذا دهى العالم اليوم...؟!

هكذا فكّر (شريف) في نفسه، هل جنّت الناس كلها...؟

إذا قلنا أن هذين الشخصان كانا تحت تأثير المخدرات، ماذا عن الشيخ...؟

هل يتعاطى المخدرات هو الآخر...؟!

الأمر غريب وغير منطقي ويُثير الفضول في نفس الوقت..

ظل على وضعه قليلًا وهو يُفكّر في محاولة لإيجاد تفسير يُشبع فضوله وحيرته، ولمّا طال تفكيرُه دون أن يصل لشيء مُفيد قرّر أن يدع الأمر لحاله، ولربمّا سأل الشيخ عليه صباحًا، ويعود الآن لفراشه لينال ساعتين من النوم الهادئ قبل أن يتّجه للمكتب..

وقرن فكره بحركته داخلًا من الشُرفة، مُغلقًا إيّاها خلفه ثم رمى جسده على الفراش وهو يتململ يمينًا ويسارًا ليجد وضعًا مُريحًا ثم يُغلق عينيه في محاولة للاسترخاء..

فقط لينتفض في مكانه مفزوعًا إثر رنّة هاتفه المحمول

التي اخترقت سكون الليل..

هذا بالضبط هو سبب إغلاقه إياه من البداية..

يبدو أنّه لا نوم الليلة..

امتدت يده تلتقط الهاتف من مكانه ليُلقي نظرة بعين نصف مُغلقة على شاشته ليُطالعه اسم شريكه (أحمد عظيم)، تنهّد في عُمق وهو يدعو الله أن يكون اتصالًا روتينيًا، ثم أجاب وهو يضع الهاتف على أُذنه:

- (أحمد)..

- آسف على إيقاظك في هذا الوقت يا (شيكو)، ولكنها حالة طارئة، ارتد ملابسك وأنا في الطريق إليك بالفعل..

بالرغم من قوله إنها حالة طارئة إلّا أن صوته كان هادئًا كعادته، فأجابه (شريف) بهدوء مُماثل وهو يُنهي المُكالمة:

- حسنًا، ستجدُني جاهزًا..

ارتاح بجسده ثانيةً وهو ينعى النوم الذي لن يناله..

(أحمد) شريكه لمدّة لا تقل عن السنة الآن وكان بعيدًا في قضية ما استغرقت منه قُرابة الشهرين ويبدو أنّه انتهى منها وعادت ريما لعادتها القديمة..

سنة كاملة أغلبها كانت علاقتهما مُتوتّرة، لدرجة أنّه لم يكُن يستسيغُه بتاتًا، كلاهُما له طريقتُه وأسلوبُه في التعامل..

يتذكّر عندما عرض عليه رئيسه السابق أن يُشرك معه شخصا ما جديد، حاول بكل الطرق أن يُثنيه عن رأيه أنّه لا يُحب الشريك ويُفضّل أن يعمل وحده، يتذّكر كيف سخر منُه رئيسه عندما ذكر له هذا «(شريف) أنت لست فريك، فعادي أن يكون لك شريك»..

لولا أنّه كان رئيسَه المُباشر لكان له رد يُناسب كميّة السماجة التي انفجرت من فمه..

كان يُفضّل العمل وحيدًا، أكثر راحةً واستقلالًا خصوصًا أنه (أحمد عظيم) هذا بدا شخصًا غير مُريح بالمرّة بالنسبة له، لا يدري لم..

رُبّما هي ابتسامته التي تبدو سمجة وحضوره المُنفّر بنظرات قد تبدو خبيثة لمن لا يعرفه، نظرات تُخفي أكثر ما تُظهر، وكأنه يتآمر عليك لا يعمل بجانبك، وخاصةً بالأقاويل التي تتناقل عليه أنَّه فاسد ويلجأ في بعض الأحيان لأساليب غير شرعية في عمله، أسباب كثيرة حالت دون تقبّله الأمر في البداية..

وكان هذا كثيرًا على شخص لا يطيق جلده مثل (شريف)..

ولكن – ولعكس ما يبدو – بدأت العلاقة تنسجم بينهما مع الوقت..

لم يكُن (عظيم) بهذا السوء على الإطلاق..

يبدو أن الإشاعات كانت أكثر من الحقائق..

عرف (شريف) أنّ الانطباع الذي يأخذُه عنُه الناس هو انطباع مقصود منهُ، وأنُّه يتعمّد أن يرتدي قناع الاجتماعي كي يُداري انطوائيته..

كان (شريف) هو الوحيد الذي يُناديه بـ (أحمد) في حين أن جميع الزُملاء ينادونه بـ (عظيم) لكثرة (الأحمدات)، ومع الوقت أصبح هو أكثر شخص يقضي معه الوقت بكل أريحية وخصوصًا في الفترة الأخيرة بعدما أصبح حرفيًا وحيدًا..

وتعلّم (شريف) ألّا ينخدع في الناس بكلام ناس آخرين عنُهم..

ارتسمت ابتسامة في رُكن فمُه وهو يشعُر أنّه دكتور (فِل) في نفسه فاكتفى بأفكاره لهذا الحد كي لا يُضيع المزيد من الوقت وقام من مكانه وارتدي ملابسه سريعًا، تناول عُلبة سجائره ومفاتيح سيّارته وهو يُلقي نظرة على إطار صورة فارغ على الكومود بجانب السرير وينعقد حاجباه للحظة وهو يتذكّر سبب وجوده هُنا قبل أن يهزّ رأسُه..

ثم ينسحب خارجًا في خفّة..

***

كان الوقت مُبكرًا على إطلاق الدُعابات، ولكن (كريم) المُمرّض لا يعرف هذا..

فهو شُعلة نشاط لا تنضب طوال الوقت..

حتّى وإن كان الوقت هو قُرب الساعات الأولى من النهار مثل الآن..

فباقي طاقم التمريض على وشك الانهيار من التعب، يبذلون مجهودًا خُرافيًا لفتح أعيُنهم في غُرفة العمليات في إحدى مُستشفيات الجيزة وهو يتحرّك بكل نشاط ذهابًا وإيابًا في جميع أنحاء الغُرفة يضحك مع هذا ويمزح مع تلك..

كان مع بعض أفراد الطّاقم على وشك الذهاب لمنازلهم بعد انتهاء ورديّاتهم لولا الحالة المستعجلة التي فاجئتهم في الطوارئ لمريض يُعاني من قيء وغثيان وارتفاع في درجة حرارته مع شعور عام بالإعياء، وأثناء الكشف عليه ملأ المكان صُراخًا عندما لمس طبيب الطوارئ الجُزء العلوي من بطنه..

وهذه إشارة لا تُخطئ في التعرّف على مريض التهاب المرارة..

وعليها تم عمل الفحوصات اللّازمة له من اختبارات وظائف كبد وكُلى، عدّ دموي شامل، اختبار كيمياء الدم، مستوى البيليروبين في الدم وغيرها من الفحوصات الضرورية في حال الشكّ في ضرورة إجراء عملية الاستئصال..

وبالفعل جاءت النتائج مؤيّدة لضرورة القيام بها وإلّا سينتهي الأمر بإنفجار المرارة في بطن المريض الأربعيني..

ومن حُسن حظه أنّه لا يُعاني من أي أمراض قد تمنعه منها بالإضافة إلى أنّه لم يأكُل من أكثر من ١٠ ساعات، فالظروف كانت مُناسبة تمامًا..

وهنا تم إخطار الدكتور (عبد الجليل) الذي يسكُن الأقرب إلى المستشفى للمجئ والقيام بالعملية وبالرغم من أنه حاول أن يعتذر لشعوره بالتعب إلّا أنه لم يجد بُدّا من الموافقة عندما علم بعدم وجود أي طبيب غيره في مثل هذا الوقت من اليوم، فطلب تجهيز المريض وتخديره وإعداد غُرفة العمليات ريثما يأتي هو..

وهكذا سطع نجم (كريم) في هذه الدقائق قبل مجئ الدكتور الذي ما إن دلف إلى غُرفة العمليات مُرتديًا الرداء

الأزرق المُميّز حتّى عم صمت الاحترام المكان، وأسرع أحدهم يُجهّز المنضدة بجانب الطاولة الرئيسية التي ينام عليها المريض..

كان الدكتور (عبد الجليل) في مُنتصف الخمسين من عُمره عادةً ما يبدو وافر النشاط عكس ما قد يوحي به سنّه، ينشُر روح البهجة في المكان الذي يوجد فيه، ولكنّه – ولسبب ما هذه المرّة – لم يبدُ بحالته المُعتادة..

لاحظ كل من في الغُرفة شروده وعدم تركيزه الواضحين في حركاته وارتعاشة يديه، هل لهذا السبب كان يرفض المجئ...؟

- هل هذا هو مريض حصوة الكُلى...؟

سأل بصوت شارد وهو يُحكم إغلاق الرداء الطبّي حول جسده..

- عفوًا يا دكتور (عبد الجليل)، هذا هو مريض المرارة، هل أبلغوك بحالة خاطئة في الطوارئ...؟

- امممم، لأ، هو نعم مريض المرارة.. أقصد مريض المرارة..

أجاب الدكتور (عبد الجليل) على (كريم) بنفس الشرود وهو يقف بجانب المنضدة ويتطلّع إلى المريض الذي تم

تغطية جسده تمامًا ما عدا الجزء الذي سيتم شقه في الجُزء العلوي من بطنه استعدادًا لعملية الاستئصال..

لاحظ طاقم التمريض شروده وإن لم يُعلّق أحدهم أو ينطق بكلمة واستمر شروده للحظات قبل أن ينتفض بحركة خافتة وهو يلتفت حوله ويوّجه حديثه إليهم مُتمتمًا:

- أعتذر، لستُ على ما يُرام..

شعر الطاقم بشفقة عليه لسنّه وحالته الصحية، لم يعُد يحتمل المجهود مثلهم والهرولة من بيته في مثل هذه الأوقات، لابُد وأنه هذا هو السبب في شروده وعدم تركيزه، فانطلقت عبارات المواساة والتشجيع منهم في خفوت، وقال (كريم) وكان قد فقد حسّه الفُكاهي:

- هل تريد أن ترتاح قليلًا يا دكتور...؟

ولمّا لم يُجبه، تنحنح وهو يُكمل:

- المريض لن يذهب إلى أي مكان وهو تحت التخدير وحالته مُستقرّة، لن يضيره انتظار بضع دقائق..

- لا، أنا بخير..

ثم تحرّك ببُطء مُتّجهًا نحو الغُرفة الصغيرة المُلحقة بغُرفة العمليات والتّي يتم فيها تعقيم الأدوات وحفظها بالإضافة

لوجود حوض صغير وأدوات تعقيم لأفراد الطاقم أنفسهم، وتابعته النظرات في أسى صامت حتّى دلف وأغلق الستارة خلفه وساد صمت غريب، فلا ارتفع صوت صنبور المياه ولا أي صوت بالدّاخل يُنبئ بأنّه يتحرّك من مكانه..

حتّى ارتفع صوت يُشبه صوت شرارة كهربائية..

تلاقت نظراتُهم في استغراب، وكلٌ قد سرح بأفكاره فيما قد يكون سبب الشرارة في مكان لا يكاد يحتوي أي أسلاك كهربائية، في حين تحّرك (كريم) الذي كان أقربّهم للغُرفة الصغيرة وتوّقف خلف الستارة وهو يميل نحوها بأُذنه قائلًا:

- دكتور (عبد الجليل) ...؟ هل أنت بخير...؟

- >>وششششششش<<

انتفض (كريم) في مكانه وهو يتراجع خطوتين للخلف في نفس الوقت الذي ارتفعت شهقات وهمهمات من أفراد الطاقم خلفه وهم يُشيرون إلى الضوء الأزرق الخفيف الذي كان يتسرّب من أسفل الستارة، ممّا جمّد (كريم) في موضعه للحظات قبل أن يعلو بصوته وهو يقترب مرّة أُخرى من الستارة قائلًا:

- دكتور (عبد الجليل) ...! أنا قادم..

ولكن ما أن لمست أطراف أصابعه الستارة حتّى توقّف الصوت واختفى الضوء فجأة..

سرت ارتعاشة خفيفة في جسد (كريم) وتوقف في مكانه على نفس موضعه مُمسكًا بالستارة لثوانٍ في حين التف أفراد الطاقم خلف الطاولة المُسجى عليه جسد المريض وقد ارتفعت ضربات قلوبهم من التوتر، ينظرون من أسفل الستارة مُنتظرين خروج الدكتور (عبد الجليل) ليُخبرهم أنّه بخير وأن ما حدث لم يكُن سوى اضطراب في إنارة الغُرفة فقط ولا داعي للقلق..

قبل أن يسطع ضوء أزرق شديد ومُفاجئ من أسفل الستارة مُصاحبًا نفس صوت الشرارة الكهربائية واستمر لجُزء من الثانية قبل أن يختفي مرّة أُخرى وترجع الإضاءة لطبيعتها ثانيةً وسط شهقات الطّاقم، وهنا لم يستطع (كريم) أن يتمالك أعصابه ففتح الستارة بغتّة وهو يُنادي على الدكتور:

- أعتذر يا دكتور، ولكّن..

وبتر عبارتُه وهو يُحدّق في الغُرفة في ذهول صاحبه شهقات أكثر عُنفًا من باقي أفراد الطاقم خلفه وهم يُحدّقون في الغُرفة التي كانت على طبيعتها بجميع مُحتوياتها كما يألفونها بجميع تفاصيلها المعهودة، ما عدا تفصيلة واحدة..

كانت الغُرفة خالية تمامًا..

فأمام أعيُنهم في غُرفة بلا منافذ، اختفى الدكتور (عبد الجليل) تمامًا..

***

لم تمُر لحظات على نزول (شريف) إلّا وكان في سيارته يُدخّن سيجارة مُنتظرًا (عظيم) الذي لم تمض ٥ دقائق حتّى ظهر مُهرولًا عند ناصية الشارع..

أطلق (شريف) نفير سيارته مرّتين ليلفت انتباهه، فاتّجه إليه وهو يُلوّح بيده ويبتسم ابتسامته الساخرة المُعتادة قائلًا:

- هل تأخرت عليك...؟

- نعم، لم أتيت سائرًا...؟

هز (عظيم) كتفيه وهو يغمز بعينه مُجيبًا بلهجة خبيثة:

- بعتُ سيّارتي من أيام، وكنت في سهرة مع أحد أصدقائي بسيارته، نقضي وقتًا لطيفًا مليئًا بالإثارة والتشويق عندما جاءني البلاغ، يبدو أن هاتفك كان غير مُتاحٍ فكُنت أنا الخُطة البديلة، فلم أُرد أن أُضيّع الوقت في الذهاب للمنزل أولًا، خصوصًا أنني كنت قريبًا منك..

لم يُعلّق (شريف) على التلميح الذّي يفهم معناه جيدًا واكتفى بأن أزال قفل الباب الجانبي من زر في مقود سيارته ليتخذ (عظيم) مكانه بجانبه، ويتحرّك (شريف) وهو يسأل:

- إلى أين...؟ وما هي الحالة الطارئة...؟

- مُستشفى المعادي العسكري.. انفجار عنيف..

قالها (عظيم) بلهجة غريبة كأنّها حملت لمحة تشفٍّ أو جزل..

نظر إليه (شريف) بطرف عينيه في مرآة الصالون وهو يحاول أن يفهم، فسأله:

- انفجار...؟ في المُستشفى...؟ حادث عارض أم بفعل فاعل...؟

أخرج (عظيم) سيجارة وأشعلها بقدّاحة السيارة وهو يُجيب مُبتسمًا:

- لم أعرف أيّ تفاصيل بعد، المكتب أعطاني الصورة العامة فقط وطلب منا الاتّجاه إلى هُناك، يبدو أنّه موسم الانفجارات، وطالما تم استدعاؤنا فبالتأكيد هي حالة تستدعي وجودنا خصوصًا أن الجميع على أعصابهم هذه الأيام بسبب زيارة وزير دفاع دولة (..)، أنت تفهم هذه

الأمور بالتأكيد..

نظر إليه (شريف) مرّة أُخرى في محاولة لفهم سبب ابتسامته هو يتحدّث عن كارثة وكأنه يستمتع بفكرة أن أحدهم يُعاني، فترجم أفكاره على هيئة سؤال وهو يعقد حاجبيه:

- وما الذي يدعو إلى الابتسام في الموضوع يا (أحمد)...؟

- أممم، لا شئ، أنا مُبتسم بطبيعتي..

لم يرد (شريف) أن يستطرد أكثر في الحديث كي لا يسمع شيئًا ما يستفزّه أكثر، فحوّل تركيزه إلى الطريق الذي عادةً يستغرق ٤٠ دقيقة ولكن الآن وفي مثل هذه الساعة المُبكرة من الصباح كانت الطرق شبه خالية فلن يأخذ الطريق أكثر من رُبع الساعة على سرعته الحالية..

بدأ (عظيم) يُدندن بصوت خافت وهو يتطلع في المرآة الجانبية إلى جُرح سطحي خفيف جدًا في جبهته اختفى تحت خصلات من شعره، لم يُلاحظه (شريف) في البداية فسأله عنه..

- لا تقلق سأعيش..

ردّ (عظيم) ساخرًا ثم استطرد:

- سببه غريب، لا تسخر منّي..

مطّ (شريف) شفتيه وهو يُتمتم بصوت مسموع:

- لا تقلق، سأُحاول ألّا أكون عديم الإنسانية مثلك..

ضحك (عظيم) ضحكة قصيرة، ثم أكمل كلامه وهو يمسح على الجُرح بمنديل:

- قلت لك أني كنت في سهرة مع أحد أصدقائي، فكنا نُدخّن (چوينت) حشيش في المُقطّم مُستندين على سيارته ونتلاقى ذهنيًا سابحين في عالم خيالي، وفجأة وبدون أي مُقدمات غلّفني ظلام دامس وشعرت بوعيي ينسحب منّي وكأن أحدهم نزع عني القابس، ولم أشعر بشئ نهائيًا حتّى وجدت نفسي أستيقظ على رنين هاتفي وقد مر حوالي الساعة وصديقي مُلقى بجانبي هو الآخر فاقد الوعي ووجهه في التُراب.. هل تُصدّق هذا...؟ نحن الاثنان فقدنا الوعي في نفس الوقت وبدون أي مُقدمات...؟

عقد (شريف) حاجبيه وقد تذكّر مشهد الرجلين والشيخ الذي شهده بنفسه منذ قليل وقد شعر بضربات قلبه تتزايد، في الوقت الذي كان (عظيم) يُتابع بسُخرية متوترة:

- واستيقظت بشعور غريب، وكأنني عارٍ تمامًا، وكأنني قد صدمني قطار بضائع، لا أستطيع الحركة، أكادُ أشعر بكل

ما حولي ولكني فاقد القوى، جسدي مُتخشّب لا أستطيع السيطرة على أعصابي وإن كُنت واعٍ ومُدرك لما حولي، تهيؤات وهلاوس غريبة بوجود ناس غير موجودين حولي.. حتّى أنّني توقّعت أن أستيقظ لأجدني مُتصدّر عناوين القناة التاسعة الإخبارية..

وازدادت نبرة السُخرية في صوته:

- يبدو أن الحشيش كان من العيار الثقيل لأن الهلاوس كانت قوية لدرجة أني رأيت السماء وكأنها مُغلّفة بقُبّة مَضيئة سُرعان ما اختفت في سُرعة نحو الأُفق..

انقبضت أصابع (شريف) على المقود بقوة..

هذا الأحمق وصف ما شعر به هو نفسه بدقّة بالغة، حتّى أنّه استخدم نفس التعبير الذي استخدمه بينه وبين نفسه...!

إذًا فهو لم يكُن يحلُم ولا كان تأثير النوم..

لقد رأى ما قد ظن أنّه رآه..

مهما كان تفسيره فهو لم يكُن من بنات أفكاره..

كانت تجربة جماعية إذًا..

لم يبدُ على ملامحه أيّ مما يعتمل بداخله، ونجح في الاحتفاظ بملامحه جامدة، في الوقت الذي كان (عظيم)

يُتابع ثرثرته:

- الغريب أننا – وقبل أن يحدُث ما حدث - كُنا نتحدّث أنا وصديقي عن الفُرصة التّي قد تأتي للشخص ويختار أن يغتنمها ليُصبح من الأغنياء في إحدى جُزر الكاريبي، فلك أن تتخيّل أفقد الوعي فجأة في نفس اللحظة وأستيقظ لأجد وجهي في التُراب بدلًا من رمال المُحيط..

قالها ساخرًا وهو يسحب نفسًا عميقًا من سيجارته..

- لا بأس، فربمّا قريبًا، لا أحد يدري..

نظر إليه (شريف) مُتسائلًا:

- قريبًا ماذا...؟

ابتسم (عظيم) دون أن يرُد، مما استفزّ (شريف) ليُعيد السؤال بنبرة أكثر حدّة:

- (أحمد) أنت تعلم كم يستفزّني التّجاهل، ماذا تعني بقريبًا...؟!

جاوبته ضحكة عالية منه، وكاد أن ينفجر فيه على إثرها لولا أن عاجله (عظيم) بقوله وهو يرفع يديه أمامه:

- مهلًا، مهلًا.. تمالك أعصابك قليلًا، فأنت صاحب مرض، هاهاها.. المُهم، هُناك عمل جانبي أعمل عليه منذ فترة، بدأت

أهتم بالتجارة في الشهرين الماضيين، وأعُد العدّة لصفقة ما.. لو جرت الأمور فيها كما أتمنى.. سأُحقق حُلمي وسأعتزل العمل إلى الأبد..

نجح حديثه في إثارة فضول (شريف) فكاد أن يسأله على تفاصيل أكثر لولا أن لاحت المستشفى من على بُعد فأشار له قائلًا وعيناه مُعلّقتان على المبنى الذي يبدو في حالة يُرثى لها:

- حسنًا، سنقف عند هذه النُقطة مؤقتًا، وستُخبرني بكل التفاصيل لاحقًا..

ارتسمت ابتسامة في رُكن فم (عظيم) وهو يُتمتم:

- إن شاء الله..

ثم رفع عينيه إلى المبنى الذي مازالت الأبخرة تتصاعد من بقاياه في الوقت الذي ركن فيه (شريف) السيارة قبل كوردون الشُرطة، بعيدًا عن الازدحام وترجلا منها في سُرعة وهما يتطلعان للكارثة بتمعّن، كان المبنى قد تهدّم رُبعه وتحوّل إلى أنقاض ورُكام مازالت آثار نيران لم تخبُ - تمامًا بعد - تلتهمها في بقايا شراهة واضحة..

في دائرة قُطرها عدّة أمتار من الأنقاض التفّ شريط أصفر يحمل شعار الشُرطة عليه حول مبنى المستشفى لمنع

اقتراب الفضوليين والمُحافظة على نطاق الانفجار في حالته البكر حتّى يتم فحصه من قِبل رجال المعمل الجنائي وإن لم يمنع ذلك أعين الناس من التطلّع بفضول ولهفة من على الأرصفة والشُرفات المُطلّة على المبنى في الوقت الذي امتلأ فيه المكان بعناصر الشُرطة يهرولون هُنا وهُناك في جميع الاتجاهات يُساعدون رجال الإطفاء في إخماد بقايا النيران المُشتعلة ويحرصون على إخلاء الطريق أمام المُحقّقين..

على الرغم من الفوضى العارمة في المكان وبقايا الانفجار التي طالت مساحة واسعة إلّا أن (شريف) لم يتمكّن من تحديد أي وفيّات أو إصابات من النظرة الأولى، كان المكان عُبارة عن أكوام من الحجارة والطوب تُغلّفها سُحب من الأدخنة والأتربة وبِرك المياه من جرّاء خراطيم رجال الإطفاء، فأشار إلى (عظيم) ليتّجها معًا تحت الشريط الأصفر نحو أحد المُسعفين الذي انشغل في إخراج أدواته من صندوق أبيض في خلفية عربية الإسعاف ليسأله (شريف) في حزم:

- أنت، ماذا حدث هنا بالضبّط...؟

انتفض رجل الإسعاف ثم نظر إليه للحظة قبل أن يعتدل مُتجاهلًا سؤاله وهو يعقد ذراعيه على صدره وهو يسأله بدوره:

- ومن أنت...؟ وكيف تخطّيت الحاجز الأمني...؟

أخرج (شريف) شارته الخاصّة من جيبه والتي تحمل اسمه ورتبته وصورته مع شعار المكتب بلون أزرق واضح ووضعها أمام عيني المُسعف الذي لم يبدُ عليه أي تغيير حتّى بعد أن أمعن النظر في الشارة التي لم تحمل له أي معنى، وقبل أن يفتح فمه ليُجيب ارتفع من وراءه صوت يُرحّب بـ (شريف):

- مرحبًا، سيادة المُقدّم، كُنت في انتظارك..

التفت كلّا من (شريف) و(عظيم) نحو مصدر الصوت ليُطالعهما رجل في أوائل الأربعينيات، زحف الصلع على مُقدّمة رأسه، مُمتلئ الجسم قليلًا ويُشبه (چورچ سيدهم) فقط إذا ما ارتدي (چورچ) بدلة الشُرطة برُتبة رائد، ما إن اقترب منهما حتّى مد يده إليهما ليُصافحهما في حرارة مُعرّفًا نفسه:

- أنا الرائد (مدحت)، أهلًا بك سيد (شريف).. اعذرهم فلا أحد يعرف بمجيئك، المكتب أبلغني الآن فقط..

- أهلًا (مدحت) باشا، لا عليك، ما هو التقرير الأوّلي هُنا...؟

عرّف (عظيم) نفسه للرائد (مدحت) الذي أشار إليهما ليبتعدا قليلًا عن رجل الإسعاف الذي تنفّس الصعداء بعد أن شعر أنه كاد أن يغلط غلطة عُمره فالتفت مُسرعًا ليُكمل

ما كان يفعله ويهرُب من نظرات (شريف) الذي لم يُعره أي اهتمام وهو يُنصت للرائد (مدحت) الذي بدأ يحكي:

- يبدو أن أحد رجال الأمن أراد أن يستمتع بسيجارة ما محشوّة بعيدًا عن باقي الطاقم فتسلّل إلى غُرفة كرار أسفل المبنى ولم يدر أن الغُرفة بها تسريب غاز، أو رُبّما هو من أفسد شيئًا ما وهو في غير عقلُه، المُهم أنّه تسبّب فيما تراه الآن..

أشار بأصبعه لرُكن قصّي يقع في مُنتصف الأطلال تقريبًا وهو يُتابع:

- هنا كان مكان الغُرفة، لم نتمكن من فتح الطريق كاملًا إليها بعد وإن استطعنا عمل فتحة صغيرة سحبنا منها جثّة رجل الأمن المُحترقة ستجدها هناك مع باقي الجُثث التي تمّكنا من جمعهم كلّهم..

مطّ (شريف) شفتيه في استياء في حين سأل (عظيم) بنبرة مُحايدة:

- كم جُثة تم العثور عليها حتّى الآن يا سيادة الرائد...؟

- تم عمل إحصائية سريعة لجميع النُزلاء مع طاقم التمريض والأطباء المُقيمين والزوار، أحصينا ٨ قتلى وحوالي ١٧ مُصاب بعضهم حالتُه حرجة والبعض الآخر فقط

كدمات وسحجات وحروق بسيطة من الدرجة الأولى..

كان تعبير الاستياء ما يزال مرسومًا على وجه (شريف)، فخفض رأسه في أسى حُزنًا على الأرواح المسكينة التي سُلبت بدون أي ذنب نتيجة إهمال شخص واحد راح هو نفسه ضحية له، كان الأمر يُشبه حادثة مُشابهة لصديق قديم لا تزال تحفُر مكانها في ذاكرته كلما واجه شيئًا شبيهًا رُغمًا عنه..

تنحنح وهو يسأل عن المكان الذي تم وضع الجُثث فيه ليُلقي نظرة، فأشار إليه الرائد (مدحت) ليتبعه ثم سار يخترق الأطلال بخفّة لا تتناسب مع وزنه، تحرّك (عظيم) ليتبعه لولا أن لفت انتباهه (شريف) وهو يُحدّق في نُقطة ما بعيدًا عن المبنى، فحاول أن يُركّز بنظره فلم ير ما يُريب، فسأله وهو يُمسكه من ذراعه:

- ماذا هناك يا (شريف)...؟

لم يرُد (شريف) على الفور، بل استمر في صمته للحظات قبل أن يهزّ رأسه وهو يُجيب:

- لا شئ، خُيّل إليّ أني رأيت شخصًا ما يبدو مُريبًا وهو يقف على بُعد فقط يُراقب ويُدوّن شيئًا ما في مُذكرة صغيرة، ولكنه ما لبث أن ذاب في الزحام، لا أدري لمَ لفت

انتباهي، ربمّا كان صحفيًا ما..

لم يُعلّق (عظيم) ولم يُعرِ الأمر اهتمامًا وتتبّع (شريف) الذي لحق بالرائد، مرورًا بالرُكام المُحترق ورجال المطافئ يكادون أن ينتهوا من إطفاء بقايا النيران المُحترقة، حتى وصل الموكب الصغير إلى المنطقة التي سلمت من الانفجار عند الجُزء الشرقي من المبنى الذي تم إخلاؤه كجُزء من إجراءات الأمن والسلامة للتأكد من عدم وجود أي خطر مُحتمل وليكون مركز قيادة عملية الإطفاء والإسعافات للمُصابين..

دلف الرائد (مدحت) إلى المبنى عبر بوابة يقف عليها جُنديان حراسة كانا يبتادلان أطراف الحديث وما أن رأياه حتّى انتصبا في احترام مؤديين التحيّة العسكرية، ردّ (شريف) التحيّة وثوانٍ وانتهى بثلاثتهم المطاف إلى معمل في الدور الأرضي تم إخلاؤه من مُحتوياته ووضع مكانهم طاولات معدنية تراصت عليها جُثث الضحايا مُغطاة بملايات بيضاء عليها بُقع دامية في الوقت الذي ملأت أنوف الثلاثة رائحة عطنة هي مزيج من عفونة مع رائحة لحم مُحترق..

دار (شريف) بعينيه في المكان وقد عاد إليه شعور الأسى مرة أُخرى، اقترب ببُطء من أول طاولة وأزاح الغطاء قليلًا عنها ليُطالعه جسد شاب يرتدي رداء تمريض مُمزّق وقد

امتلأ بالسحجات والكدمات مع بعض الجروح القطعية في ذراعه وصدره ووجهه، لم يبدُ عليه آثار احتراق فخمّن (شريف) أن صاحبه كان بعيدًا عن نُقطة الانفجار وأنّه مات تحت الأنقاض، فأعاد الغطاء مكانه مرّة أُخرى وهو يلتفت إلى الرائد (مدحت) الذي كان يقف مُمسكًا لوح بلاستيكي مثُبّت عليه بضعة أوراق مطبوعة، سأله (شريف) وهو يمد يده إليه:

- هل هذا هو التقرير المبدئي...؟

- نعم هو، ولكن.. أمممم..

لاحظ (شريف) نبرة التردد في صوت الرائد وهو يلتقط منه التقرير ويُلقي نظرة سريعة عليه لثوانٍ قبل أن يسأله في حزم:

- ولكن ماذا...؟ يبدو سليمًا من النظرة الأولى..

- من النظرة الأولى نعم، ولكن هلّا ألقيت نظرة على الصفحة الثانية..؟

رفع (شريف) أول ورقة التي سردت وصف إجمالي للحادث ليجد جدول في الصفحة الثانية فيه أسماء الضحايا وأعمارهم التقديرية وقد تم تقسيمهم بالفئة من زوّار لمرضى لعاملين وهكذا، قرأ (شريف) الأسماء بتمعّن مع بيانات كل

منهم فلم يجد شيئًا غريبًا يلفت الانتباه، فرفع عينيه مُتسائلًا إلى الرائد (مدحت) الذي كان قد تحرّك من مكانه ليُفسح مجال الرؤية للغُرفة كلّها أمام (شريف)الذي لم يفهم المغزى في البداية، فمسح بعينيه المكان مرّة أُخرى في الوقت الذي ارتفع فيه صوت (عظيم) الذي جرّب حظّه وهو يسأل في سُخرية:

- لا تقُل لي جُثة ناقصة يا سيادة الرائد، كليشيهات أفلام الرُعب هذه صارت محفوظة..

عقد (شريف) حاجبيه وهو يستمع إلى (عظيم) ثم يُلقي نظرة أُخرى على الجدول ويرفع عينيه بسُرعة إلى الطاولات وهو يُحصي عدد الجُثث قبل أن يُجيب:

- بل هي جُثة زائدة يا (أحمد)، التقرير فيه ٨ جُثث بينما أمامنا على الطاولات ٩..

وكان هذا هو أول لُغز..

***

كانت السّاعة قد تخطّت الثامنة مساءً بقليل عندما تحرّك أحدهم عبر الفناء الخلفي لذلك السجن على أطراف المدينة..

كان الفناء واسعًا ومُحاطًا بسورٍ عالٍ ينتهي بأسلاك شائكة وعلى مسافات متساوية من أعلاه تراصت كشّافات قوية أحالت الليل إلى نهار كما هو المطلوب..

بدا ذلك الرجل مُخيفًا وهو يمُر عبر الفناء بخطوات واثقة مُرتديًا فانلة حمالات مصفرّة تُبرز عضلاته المفتولة المُزيّنة بوشوم رديئة التنفيذ على كتفيه وذراعيه، يهابُه الجميع ويُفسحون له الطريق في رهبة، وهو يتهادى في خُيلاء، لا يُبالي بأيّ منهم مُتّجهًا نحو رجلٍ ضئيل يجلس وحيدًا على كُتلة أسمنتية تم صقلها وتنعيمها لتُصبح مقعدًا مُنزويًا في أحد أركان الفناء..

وما أن وصل إليه حتّى اختفت الثقة والهيبة الزّائدتان وحل محلّهما احترام ورهبة بالغتان وهو يهمس للرجل في احترام شديد:

- تحت أمرك يا زعيم، أخبرني (عطوة) أنك طلبت حضوري..

- لا أشعر بخير يا (عصفورة)..

طبعًا في موقف آخر كان (عصفورة) لا يسلم من السخرية

منه بسبب اسمه مُقارنةً بحجمه، فشخص بمنظره وحجمه لا يُشبه العصافير في أي شيء، لرُبّما كان (بغل) أو (خرتيت) أوقع ولكن هذا ما اختارته له الدنيا ولربّما كان سبب من أسباب اهتمامه بنفسه وتقوية عضلاته حتّى لا يسمح لأحد أن يسخر منه.. إلّا (القناوي)..

هو الوحيد الذي لا يستطيع أن يقف أمامه بالرغم من أن (القناوي) عجوز ضئيل الحجم، ضامر العضلات، فقط عيناه اللّامعتان هما الشيء الوحيد في جسده الذي يوحي بالحياة، تجعلانُه يبدو وكأنُه ذئبٌ عجوز، يبدو هزيلًا مُقارنةً به إلّا أن تاريخه على مدار قُرابة الأربعين عامًا هو تاريخ حافل بالمصائب وورائه طابور ممن يدينون له بالولاء ومَن قد يقتلون أنفسهم في سبيله..

و(عصفورة) ليس غبيًا ليُعادي مَن مثله حتّى ولو كان أضعف منه..

فانحنى عليه وهو يرسم معالم الاهتمام والقلق وهو يسأله:

- ما بك يا زعيم...؟

- لا أدري.. فجأة أشعر وكأني مُنتشٍ، لا أكادُ أشعر بجسدي، أعصابي سائبة وهناك صوت صفير في أذني وكأني في محطة قطار والأضواء عالية زيادة عن اللزوم، لا أدري.. هُناك

شيء ما غير مضبوط..

- هل أثقلت (العِيار) اليوم يا زعيم...؟

سأله (عصفورة) في بلاهة، فنظر إليه (القناوي) نظرة خاوية قبل أن يُجيبه:

- لم أتناول سوى وجبة الغداء فقط أيها الأحمق، وأنت تعلم أن المخزون نفذ من الخميس الماضي ولم نستطع إمرار أي شيء عبر الحرّاس من يومها، رُبما القلقاس كان فاسدًا في الغذاء..

أومأ (عصفورة) برأسه مؤكّدًا وهمّ أن يقول شيئًا لولا أن قاطعه ارتفاع صوت جرس عالٍ، يُدرك معناه جيدًا كل من السجن، فبدأ على أثره كل المساجين في الفناء بالتحرّك نحو بوابة مبنى قديم من ٣ أدوار قُرب السور فيه زنازين البيات الخاصة بهم، فقام (القناوي) من مكانه ببُطء وهو يُشير إلى (عصفورة) ليتبعُه قائلًا في شرود:

- هيّا إلى الزنزانة، لا نُريد أي مشاكل الليلة وأنا في هذه الحالة..

كانت خطواته بطيئة مُترنّحة وكأنه يسير على عودين من المكرونة وظهرُه محني كعلامة استفهام، فأسرع (عصفورة) ليسندُه من ذراعه ويتأبّطهُ ليسير بجانبه على نفس وتيرته،

حتّى مرّا بأحد الحرّاس الذي رمقهُما بنظرة سُخرية قائلًا:

- أمسِكْ والدك جيدًا يا (فرخة)..

لم يُجبه أيٌ منهما ولم يبدُ على (القناوي) أنّه سمعه أصلًا وواصلا طريقهما عبر الممر الطويل الذي تراصت على جانبيه الزنازين الفردية، حتّى وصلا إلى زنزانة (القناوي) فأسنده (عصفورة) حتّى جلس على سريره الصغير بجانب الحائط، واطمئن عليه أنّه ما يزال بوعيه ثم تركه وعاد إلى زنزاته التي تسبقه بعدّة زنازين واستكان على سريره وسط همهمة من المساجين الذي كانوا يتبادلون الهمسات كعادتهم في انتظار التمام من الحارس قبل إطفاء الأنوار..

لم تمُر دقائق حتّى تعالى صوت (إبراهيم) الحارس الذي دلف عبر البوابة وهو يُتمّم على المساجين بالترتيب من أول الممر يمينًا ويسارًا، ومع كل زنزانة يمُر بها يرفع يدُه للأعلى ويُشير لكاميرا في طرف الممر فوق المدخل بأصبعِه في حركة دائرية فيُغلق باب الزنزانة أوتوماتيكيًا من قِبل حارس الأمن في غرفة المُراقبة..

كانت زنزانة (عصفورة) تقع قُرب مُنتصف الممر أقرب لنهايته قليلًا، تليه زنزانتان مشغولتان فزنزانتان شاغرتان، نُقل أحد قاطنيهما لمبنى آخر وتم إخلاء سبيل الآخر الشهر الماضي، ثم زنزانة (القناوي) التي تقع في نهاية الممر

مُلاصقة للحائط، ومن مكانه لا يستطيع (عصفورة) أن يراها إلّا إذا وقف على الباب والذي كان مُحرمًا تمامًا على أي سجين فعله أثناء تفتيش التمام وإلّا فالعقاب الحبس الانفرادي شهر كامل مع القليل من الضربات والإهانات..

انتهى (إبراهيم) الحارس منه وأغلق باب زنزانته وسمعه بعدها عند زنزانة (القناوي) يُتمّم عليه قائلًا بسُخرية:

- ماذا بك يا (قناوي)، هل سيأتي أمر الله أخيرًا...؟

لم يسمع (عصفورة) رد (القناوي) فاقترب من قُضبان الزنزانة وأمسكهم بيده وهو يُحاول أن يعتصر وجهُه بينهم ليُلقي نظرة عليه فلم يستطع أن يرى سوى الحارس يقف على باب الزنزانة ويُشير إلى الكاميرا لتُغلق زنزانة (القناوي) قبل أن يعود أدراجه ويخرُج من الممر تمامًا، وثوانٍ وانطفأت الأنوار كلّها إلّا من ضوء أصفر باهت في طرف الممر بالكاد يُنير المكان..

تراجع (عصفورة) في مكانه ليستعيد مجلسه على السرير، وباله مشغول بزعيمه، خاصةً بعد تعليق (إبراهيم) الحارس، سحب سيجارة من تحت وسادته وتشمّمها في تلذّذ وهو يُحدّث نفسه مُمنّيًا إيّاها بأنفاس طويلة من السيجارة، فقط يطمئن ألّا قلق هُناك وقد خلد الجميع إلى النوم و..وسمع صوتًا ما يأتي من آخر الممر..

من ناحية زنزانة (القناوي)..

كان أشبه لصوت شرارات كهربائية خافتة..

صوت أثار قلقه وجعله يدفن السيجارة مرّة أُخرى في مكانها تحت الوسادة وهو ينتفض من مكانه في خفّة لا تتناسب مع حجمه مُلتصقًا بالقُضبان مرّة أُخرى في محاولة لرؤية ما يحدث في زنزانة زعيمه ولكن - كالعادة - لم يستطع رؤية ما يحدُث من الزاوية التي كان ينظر منها فنادى عليه بصوت خافت:

- هل أنت بخير يا زعيم...؟ ماذا يحدث عندك...؟

جاوبته همهمات غاضبة من المساجين في الزنازين المجاورة تدعوه للسكوت كي يخلدوا إلى النوم ولكنه بادرهم بزمجرة من حنجرته الحيوانية كتمت أنفاسهم، في الوقت الذي كان فيه صوت الشرارات الكهربية لا يزالُ مُستمرًا في الخلفية..

«وششششش»

حاول (عصفورة) أن يحشُر وجهه أكثر بين القضبان ليُعطي لنفسه زاوية أفضل ولكنه لم يستطع إمرار أنفه حتّى، وبدأ يُلاحظ أن ظلام الممر يتبدّد في بُطء مع ضوء أزرق

خفيف بدأ في السطوع من ناحية زنزانة (القناوي).. ضوء أزرق مُتراقص يمُر عبر القضبان للخارج وكأن (القناوي) يُمسك كشّافًا ويوجّهه نحو الممر..

أنّى لـ (القناوي) أن يأتي بكشّاف ولمَ يعبث بِه بهذه الصورة السافرة...؟!

هل ضاع منُه شيء مهم لدرجة أن يكشف نفسه بهذه الطريقة بحثًا عنه...؟!

بدأ قلق حقيقي ينهش في صدر (عصفورة) فارتفع صوته أكثر وهو يُنادي عليه:

- يا زعيم، أين أنت...؟! أجبني...! هل أنت بخير...!؟ ماذا يحدث عندك بالضّبط...!

ثم وجّه كلامه إلى (عطوة) صاحب الزنزانة الأقرب إلى زنزانة (القناوي):

- يا (عطوة) ماذا يحدث هناك...؟! الق نظرة من عندك...!

- أ..أ... لا أرى شـ... شيئًا من هنا يا (عصـ...) يا (عصفورة).. فقط صوت (نغبشة) كهرباء و... وضوء خفيف.. لو عرف الحرّاس أن (القـ...).. الزعيم معه محمول.. سـ... سنُعاقب كلّنا..

كان الخوف والاضطراب واضحين في صوت (عطوة) بغض النظر عن افتراضه أن (القناوي) معه هاتف محمول في زنزانته قد يفُسّر الضوء الخفيف إلّا أنّه لا يُفسّر الصوت الغريب وعدم استجابة (القناوي)..

وهُنا بدأ المساجين ينتبهون لما يحدُث فوقف كلٌ منهم من سريرُه مُمسكًا بقضبان زنزانته في محاولة لرؤية ما يحدث في نفس اللحظة التي توّقف فيها الصوت واختفى الضوء وعم الظلام والصمت المكان كلّه مرّة واحدة..

كان الفضول يعصفُ بالمساجين الذين لم يعتادوا هذه الأحداث الغريبة من قبل..

وظن أغلبهُم أن العرض قد انتهى وعادت الأمور لطبيعتها..

قبل أن تنبعث دفقة مُفاجئة من ضوء أزرق شديد السطوع من زنزانة (القناوي)، وكأنُه شمس أضاءت الممر كلّه لجُزء من الثانية قبل أن تختفي مرّة أُخرى مُحدثةً نفس الصوت الغريب..

وكان المصدر زنزانة (القناوي)..

وهنا لم يستطع (عصفورة) أن يُمسك نفسه فأخذ يُنادي على الحرّاس وهو يقرع على القضبان بُعنف، وحذى حذوه بعض المساجين بالطرق على القُضبان بأوانيهم المعدنية في

محاولة لإظهار الدعم المُعتاد في نفس اللحظة التي أضاء فيها الممر وانفتح الباب ودخل منه (إبراهيم) الحارس عابثًا ومُتحفزًا، مع حارس آخر لا يعرفه (عصفورة) وصرخا في الجميع ليسكتوا..

وكأن المساجين كانوا بحاجة لتلك الصرخة ليعُم الصمت المكان تمامًا، ما عدا (عصفورة) الذي أشار بيده نحو زنزانة (القناوي) وهو يهتف بهم في قلق:

- هناك يا (إبراهيم) باشا.. زنزانة (القناوي).. ماذا يحدث لـ (القناوي)...؟!

ضرب (إبراهيم) الحارس على القُضبان بعصاه في عُنف وهو يصيح فيه بثورة:

- اخرس يا (زفت).. لا أريد أن اسمع أي نَفَس هُنا...!

سكت (عصفورة) رُغمًا عنه وهو يُتابع الحارسين في طريقهما لنهاية الممر حيث زنزانة (القناوي) وما أن وصلا إليها حتّى رآهما من عنده يتجمدّان في مكانهما وهما ينظران داخل الزنزانة في ذهول للحظات في منظر أسقط قلب (عصفورة) بين قدميه خوفًا على زعيمِه، وأشعل فضوله في نفس الوقت فأخذ ينادي عليهما ليُجيباه ولكنهما لم يلتفتا حتّى إليه و(إبراهيم) يُشير بعصبية في الكاميرا

نحو الزنزانة ليُفتح بابها بعدها بثوانٍ ويندفع هو بداخلها والحارس الآخر يتحرّك في الممر يتفقّد الزنازين الأُخرى في سُرعة..

- ماذا هناك يا سيدي..؟ ماذا حدث لـ (القناوي)..!؟

كانت هذه من (عصفورة) الذي ازدادت ضربات قلبه قوة خاصةً بعد رأى من مكانه (إبراهيم) الحارس يندفع مرّة أُخرى خارجًا من الزنزانة ويجري عبر الممر في سُرعة إلى صندوق طوارئ بجانب البوابة الرئيسية ويلتقط منه سمّاعة قصيرة ويضغط زر بجانبها وهو يصرُخ موجّهًا حديثُه للكاميرا:

- سجين هارب...! أُكرّر سجين هارب...! أطلق صافرة الإنذار...!

وهنا انطلق العويل الصارخ يملأ المكان أُضيئت أنوار الزنازين كلّها مع أنوار المبنى نفسه وتم تنبيه جميع الحرّاس على البوابات و(إبراهيم) يرمي السمّاعة ويُتابع صُراخه:

- الزنزانة خالية أيها الحيوانات.. إن لم تخبروني أين ذهب (القناوي) حالًا أُقسم لكم لن تروا ضوء الشمس مرّة أُخرى...!

وهنا انهار (عصفورة) بجسده على السرير وهو يدفن

وجهه بين كفّيه غير مُصدّق..

وارتفع السؤال الأوحد إلى سماء الزنزانة..

كيف اختفى (القناوي) في زنزانته بهذه الطريقة...؟

وأين...؟

***

أخذ (عظيم) رشفة طويلة أخيرة بصوت مسموع من عاشر كوب شّاي على مدار اليوم قبل أن يضعه بجانبه على الطاولة ويعود بنظره إلى بعض أوراق يحملها في يده مُتفحصًا إيّاهم بضجر ويُلقي فلتر السيجارة التي احترقت لآخرها في المنفضة وقد انتقل الضجر إلى صوته:

- لا أجد أي أثر لأي شيء غريب هُنا، حادث إهمال مُعتاد راح ضحيّتُه عدة أفراد بمن فيهُم المُهمل نفسُه، شيءٌ يحدُث كل يومٍ في كل مكان، فلا أدري ما سبب وجودنا أصلًا، لمَ لم تتولّ الشُرطة الأمر من البداية...؟

لم يُجبه سوى صمتٌ مُطبَق، فأدار عينيه نحو (شريف) الذي كاد أن ينتهي من فحص الجُثّة الثامنة مع الطبيب المُقيم في المُستشفى، فهتف به في حَنَق:

- (شريف)...؟؟

- نعم يا (أحمد)...؟

كانت هذه من (شريف) وهو ينتزع القفّاز الطبّي من أصابعه ويُلقيه في سلّة القمامة ويلتفت إليه وهو يُكمل:

- عناصر الشُرطة مشغولة بتأمين موكب الوزير وحتّى لو.. هل لديك شيءٌ ما أهم من عملك...؟ أعني هل تُريد أن تذهب لمكان ما لا أعلم به...؟

- بالطبّع لا، ولكنّي فقـ...

قاطعه (شريف) وقد اكتسب صوته لمحة من الصرامة وهو يُكمل وقد أشعل سيجارة بدوره وهو يتحرّك نحو شبّاك صغير يطل على الحديقة الخلفية:

- جميل، إذًا لنبذل قُصارى جَهدنا لننتهي من هذه الليلة، انتهينا من كل الجُثث في التقرير، وباقي الجُثّة المجهولة لننتهي منها ونكتُب تقريرنا النهائي ونعود إلى منازلنا..

مطّ (عظيم) شفتيه في ضيق وأعاد دفن وجهّه في الأوراق في الوقت الذي نَفَث فيه (شريف) دُخان سيجارته في عُمق وهو يُفكّر..

كان يُقاوم ذلك الشعور الممض الذي يجتاحه وهو أن السويعات القليلة القادمة ستحمل له مُفاجأة ما، شعور تعوّد

أن يُصدّقه على مر السنين بعد أن أثبت صحّته كل مرّة، لا يدري ما سيحدُث ولكنّه يشعر بأن شيئًا ما في الطريق إليه..

سحب عدّة أنفاس سريعة وأطفأ سيجارته قبل أن تنتهي وهو يتّجه نحو الطاولة ليسحب قُفّازين جديدين ويرتديهُما وهو يُحدّث الجُثة التاسعة التي مازالت تحت الغطاء كما كانت:

- مَن أنت...؟ هل مُجرّد مُتشرد تعيس الحظ أم وراءك لُغز ما...؟

اقترب من الطاولة بعد أن انتهى من ارتداء القُفّاز ورفع الكمامة مرّة أُخرى على وجهه بعد أن أزاحها ليستطيع تدخين السيجارة، والتفت للطبيب الذي أصابه الإعياء واضحًا مُشيرًا له بالاقتراب وهو يزيح الغطاء من على الجُثة، ليمتعض من المنظر ويتقلّص أنفه في قوة وهو يبتعد بوجهه عن العطن المُنبعث من تحت الغطاء..

كان يُقاوم رائحة لحم مشوي هاجمت أنفه في شراسة..

هذه الجُثّة هي الأكثر سوءًا بالفعل..

حالتها هي الأكثر اهتراءً عن باقي الجُثث، يكاد جلدها أن يذوب بأكمله، تهدّل بتراخٍ بفعل الجاذبية واختفى شق الفم تمامًا من الوجه وصار أشبه بأخدود خفيف أسفل كُتلة

جلدية متغضّنة كانت أنفًا يومًا ما، ورُقع الجلد تمتزج ببقايا الثياب التي كان يرتديها صاحب الجُثّة والذي قد صار من المستحيل تفرقة ملامح وجهه عن بعضها، والغريب أن حالتها اختلفت عن باقي الجُثث أيضًا في طريقة احتراقها، وكأنّها تعرّضت لمطر حمضي وليس نيران من ماس كهربائي يتميّز ضحاياه بلون وشكل مألوف..

توقّف الطبيب على بُعد من الطاولة وشهق ووجهُه يرسم كل ملامح الاشمئزاز في الدنيا..

كانت أول مرّة يرى فيها الجثة..

بل أول مرّة يرى فيها مثل هذا المنظر على الإطلاق..

تعالى صوت (عظيم) في نفس اللحظة وهو يتساءل ماذا هُناك قبل أن يغلبه فضوله فيقوم من مكانه ويُلقي نظرة على الفاجعة المُسجاة على الطاولة ووجد نفسُه يسُب تلقائيًا بصوتٍ خافتٍ في الوقت الذي التفت فيه (شريف) نحو طاولة أُخرى بجانبه، يستقر عليها التقرير الأوّلي تناوله وتصفحه في سُرعة وهو يُتمتم لنفسه:

- لا يمكن أن يكون هذا ضحيّة من ضحايا الحريق، هذه الجروح وهذه الرائحة ذات طابع كيميائي..

- عمّا تبحث بالضّبط...؟ سأله (عظيم)..

- لا أدري، أبحث عن أي معلومة قد تُشير لمصدر إصابته بالحروق، مصدر ما يكون مُختلفًا عن باقي الجُثث.. رُبمّا كان موجودا في مكان مُختلف عنهم، معمل، مشرحة المستشفى، لا أدري..

ولكنّه لم يجد شيئًا مُختلفًا، بل لم يجد شيئًا على الإطلاق له علاقة بهذه الجُثّة وكأنّها وُجِدت من عدم، فألقى التقرير على الطاولة مرّة أُخرى بعصبية وأخرج هاتفه المحمول من جيب بنطاله وطلب رقمًا ما ورفعه لأذنه مُنتظرًا، ثوانٍ مرّت قبل أن يسمع صوت مُحدّثه فسأله:

- أنا (شريف) يا (مدحت) باشا، أين أجد مُتعلّقات الجثّة المجهولة...؟ لقد أخبرتني أنكم قد وجدتم معها شيئًا ما، صحيح...؟

صمت وهو يستمع إلى الرائد (مدحت) - الذي كان قد مضى لتفقّد باقي القوّات بالخارج - وهو يُهمهم ويتجّه بناظره نحو خِزانة معدنية كبيرة قُرب باب جانبي في المعمل ويتّجه إليه في خطوات واسعة وهو يشكُر الرائد (مدحت) ويُغلق الخط ويُعيد الهاتف إلى جيبه مرة أُخرى، ثُم يفتح الخزانة ويعبث بمُحتوياتها قليلًا قبل أن يلتقط كيسًا بلاستيكيًا صغيرًا مُغلقًا بشريطٍ لاصقٍ من الأعلى ويُلقي نظرة على الورقة المُلصقة عليه ليتأكّد منها أنّه الكيس

المطلوب، ويفُضُّه في سُرعة غير عابئٍ بـ (عظيم) الذي جاء ليُلقي نظره على ما وجده في الكيس..

والذي لم يكُن سوى ورقة..

ورقة صغيرة مُجعّدة ومُصفرّة بأطراف مُحترقة سحبها (شريف) بمبضع مُخصص للتّعامُل مع الأدلة الهشّة كي لا يُفسدها، ورفعها للأعلى في الضوء ليُمعن النظر فيها وهو يُقطّب حاجبيه، فاقترب منه (عظيم) وهو يُلقي نظرة عليها بدوره قبل أن يرتسم على وجهه تعبير أشبه بذلك الذي ارتسم على وجه (شريف)..

كانت الورقة مسطّرة وبها سطر أحمر يقطعها عرضيًا من أعلاها، وتحمل حروفًا مهزوزة مُتفرّقة وكأن مَن كتبها هو طفل صغير أو شخصٌ ما لديه شلل رعّاش، بعض تلك الحروف قد ضاعت تفاصيلها إثر الاحتراق الذي نال جُزءًا كبيرًا منها، والباقي لا يكوّن كلامًا مفهومًا ردّده (عظيم) بصوت مسموع كيّ يتأكّد:

- «\ن\ هـ و \انـ تـ لـ\ ننق فـ احمر هـ ر مـ ن ور\د تـ لـ ـه اوزير».. أممم، ما هذا بحق الـ...؟

قاطعه (شريف) ليمنعه من السباب وهو يقول:

- بالتأكيد منطوقك الآن ليس هو المقصود من المكتوب،

لقد احترقت أغلب الورقة وضاعت حروفها معها..

همهم (عظيم) بكلمات غير مفهومة، ثم علا صوته وهو يتساءل:

- إذًا فبغض النظر عن الأحرف الأولى التي لا أفهم ماذا تعني فالمفروض منّا «(ألّا ننق في) شيء ما (أحمر اللون) وإلّا (سيحدث) شيء ما للـ (ورد) الخاص بـ (أتيليه أوزير).. ما هذا الهُراء بالضّبط...؟!

- احمم، أو.. أوزير هو معبود.. مـ.. مصري قديم..

التفت كلٌّ من (شريف) و(عظيم) إلى الطبيب المُقيم الذي كانا قد نسيا وجوده تمامًا، فعدل وضع نظّارته على أنفه وهو يُتابع بابتسامة مُتوترة:

- أوزير هو إله البعث والحساب في الحضارة المصرية القديمة، وهو أبو حورس وزوج إيزيس وكلاهما معبودان مصريان قديمان بدورهما.. إحم، أنا مُهتم بالحضارة المصرية القديمة، فـ.. فلذلك.. أممم.. قُلت.. يُمكنّني أن أُساعد..

عقد (شريف) حاجبيه وهو ينظُر في الورقة مرّة أُخرى على ضوء المُعطيات الجديدة في حين ارتسمت ملامح الاستنكار على وجه (عظيم) الذي ظهر جليًا في صوته وهو يقول:

- معبود مصري قديم في حادثة في القرن الحادي والعشرين...؟!

- آآسف، لم أقصُد أن أتـ.. أتدخّل.. ولم أقُل..أأ..ن هذا ما حدث، فقط قُلت مـ.. من هو أوزير و.. و..

- أحسنت يا دكتور، نشكرك بالطبّع على مجهودك، زميلي لم يقصد، أنت تعلم التوتر والضغط العصبي منذ جئنا هنا، نعتذر منك..

كانت هذه من (شريف) الذي رمق (عظيم) بنظرة مُعاتبة وهو يربّت على كتف الطبيب في مودّة واضحة ليُهدئ من روعه، ثم أخبره أن يأخذ قسطًا من الراحة قليلًا قبل أن يُعاودا عملهما، فلم يكذّب الرجُل خبرًا وانطلق وساقاه تُسابقان الريح للخارج وعندها التفت (شريف) مرّة أُخرى إلى (عظيم) وقد اكتسى وجهة صرامة مُباغتة وهو يسألُه:

- ألن تكُف عن طريقتك هذه...؟!

- طريقة ماذا...؟! ألم تر ماذا يقول...؟

- الرجل كان يُحاول أن يُساعد فقط بقدر استطاعته، ولم يطلُب منك أو من أحد أن يُصدق أي شئ، المُهم..

مد يده وفتح باب خزانة مُعلّقة بجانبه وسحب منها

عيّنة مسح طبّي وأدخل طرفها في فم الجُثة وحركّها يمينًا ويسارًا قبل أن يُخرجها وقد تشرّبت بلُعاب الجُثّة ليضعها في غطاء بلاستيكي مُخصّص لها، ويكتُب عليها «الجُثة التاسعة» ثُم يناولها لـ (عظيم) مع الورقة ليضعهُما على التقرير الذي سيتم تسليمه للمعمل الجنائي ليقوم أفراده بتحليل اللّعاب ومُقارنة نتيجته بقاعدة بيانات الحمض النووي لديهم في محاولة لمعرفة لمن تعود هذه الجُثة الغامضة..

كانت هذه هي الطريقة الوحيدة المضمونة في غياب أي أوراق رسمية أو حتّى ملامح واضحة قد تُساعد في التعرّف على صاحب الجُثّة..

التفت بعدها إلى (شريف) ليجده واقفًا أمام الجُثّة وقد عقد ذراعيه على صدره وهو يُداعب فمه بأطراف أصابعه في تفكير عميق، فاقترب منه وهو يتطلّع إليها بدوره قائلًا:

- لماذا ينتابني هذا الشعور أن هذه الليلة لن تنتهي قريبًا...؟

قابله صمتٌ استمر لثوانٍ قبل أن يُجيبه (شريف) بلهجة غريبة:

- هُناك شيء ما بخصوص هذه الجُثّة، لا أدري..

- شئٌ ما مثل ماذا...؟

كانت هذه من (عظيم) الذي اقترب من الطاولة بدوره وهو يتمعّن في الجُثة التي اختفت معالمها تمامًا لدرجة أنّه وجد صعوبة في فصل ملامح الوجه من الرقبة من الأكتاف..

كانت عبارة عن كُتلة مُصمتة من اللحم المُنصهر..

قبل أن يأتيه رد، ارتفع في المكان رنين هاتف (شريف) في جيبه، فالتقطه سريعًا وهو يُجيب قبل أن يعقد حاجبيه وهو يستمع إلى مُحدّثه لثوانٍ، ثم يُنهي المُكالمة مُلتفتًا إلى (عظيم) وهو يقول:

- يبدو أن شعورك على حق يا (أحمد)..

ثم التقط عينة المسح الطبّي مع التقرير وأعطاهُما إليه وهو يخلع القفّاز الطبّي والكمامة ويُلقيهُما في القمامة ويتحرّك صوب الباب قائلًا:

- أُريد نتيجة هذا التحليل في أسرع وقت مُمكن، وبعد إرساله لمعمل التحاليل أُريدك أن تتّجه إلى مُستشفى (...)، هناك طبيب اختفى دون أثر من غُرفة عمليات مُغلقة في وجود الطاقم الطبي كاملًا..

- ماذا...؟ وماذا عنك...؟ إلى أين أنت ذاهب...؟!

توقّف (شريف) مُمسكًا بالباب وهو يلتفت إليه مُجيبًا في

توتر:

- إلى سجن (...).. هناك سجين اختفى من زنزانته المُغلقة هو الآخر..

ثم انطلق في طريقه تاركًا (عظيم) يحُدّق في الباب وهو يُغلق ببُطء..

يبدو أنّها ستكون ليلة طويلة..

***

رفع (سامح) مؤشّر الصوت في مذياع سيارته على محطّة (أم كلثوم) ثم علا صوته مُتأثرًا وهو يُردّد خلفها «وقسوة التنهيييد.. آاه.. والوحدة والتسهيييد.. تيرارااه»، ثم عدّل من وضع مرآة الصالون ليُلقي نظرة على الطابور خلفه في انتظار الإشارة لتتغيّر وتسمح لهم بالمرور وهو يُكمل دندنة «وعايزنا نرجع زيّ زماااان.. قول للزمان ارجع يا زماااان»..

لم يكُن يُدرك أن صوت غنائه وصل إلى السيارة التي تنتظر خلفه وأنّه قد أصبح نجم المسرح للفتى والفتاة الذين قُتلا ضحكًا عليه، والفتى ينظر إلى صديقته غامزًا بعينُه وهو يُكمل حديثه لها قائلًا:

- يعتقد نفسه في حمّام منزله، ولا يدري أن صوته أصبح

محط اهتمام لذُباب الشارع هاهاها..

- هاهاها حرام عليك، بل يبدو محرومًا (يا عيني) هاهاها..

كانت هذه من صديقته وهي تعبث في هاتفها المحمول لتسرد ما يحدُث في منشور على صفحتها على أحد مواقع التواصل الاجتماعي الشهيرة في الوقت الذي كان صديقها يُعدّل على ما تكتُبه لتصير الصيغة أكثر سُخريةً وتهكمًا وهو ينقل عينيه بين الإشارة في انتظار الضوء الأخضر لبدء تحرّكهم وبين سيّارة (سامح) ليُكمل سخريةً منه، ولكن وبينما كان الفتى ينظر جانبًا إلى هاتف صديقته، لمح وميض أزرق باهت ينبعث من سيارة (سامح) استمر لجُزء من الثانية في رُكن عينه، لم يلتفت وإن أردف في سُخرية وهو يلكزها في جانبها:

- ها هو ميعاد (السيلفي)، يبدو أنّه ليس (محرومًا) إلى هذا الحد و..

قاطعه ارتفاع أصوات نفير السيارات خلفه مُنبئًا بفتح الإشارة فاعتدل وهو يُحرّك عصا ناقل السُرعة لوضع الحركة، قبل أن يُحدّق بدهشة عبر زُجاج سيّارته الأمامي إلى سيارة (سامح)، ثم ما لبثت دهشته أن تحوّلت إلى غضب وهو يدُق نفير سيارته بعُنف أجفل صديقته وجعلها ترفع عينيها هي الأُخرى عن هاتفها لتطلّع لما يُثير غضبه، لتجد السيارة

خالية..

لا أثر لمادة سُخريتهم في مكانه..

رفعت حاجبيها وقالت في دهشة:

- أين ذهب...؟ ألم تقُل أنّه كان يصوّر نفسه...؟

- لا أدري، لم أره ولكن ضوء الفلاش التمع في وجهي، ذلك الأحمق..

وقرن سُبّته بفتح الباب وسط صُراخ نفير السيارات المحبوسة خلفهم في الطابور، واتجّه بعصبية نحو السيّارة وهو يُفكر أنّه رُبّما يكون مُنحنيًا في مكان ما خلف المقعد أو رُبّما يفحص أحد الإطارات أو مُقدمة السيارة أو أي مكان آخر يحجب رؤيته، ولكنّ ما أن وصل إلى جانب باب السائق حتّى تحوّل غضبه إلى دهشة عارمة وهو ينظر عبر الزُجاج إلى المقعد الفارغ في نفس اللحظة التي وصل إليه فيها عدد من سائقي السيارات الأُخرى يبدو على ملامحهم الغضب وأحدهم يهتف في حنق:

- ما به هذا الأرعن...؟ هل سنمضي باقي اليوم هنا ورا..

وبتر عبارته هو الآخر وهو ينظر إلى السيارة الفارغة بزُجاجها المرفوع ومُحركّها الدائر، ثم نظر إلى الفتى الذي

سبقه إليها وهو يتسائل في دهشة:

- ما هذا...؟ أين ذهب...؟

- لا أ.. أدري، أنا في السيارة التي تقف خلفه ولم أره يرتجل من سيارته، ثم إن حزام الأمان مازال مُغلقًا على المقعد، والباب موصد من الداخل و.. لا أدري..

كان سائقو السيارات الأخرى قد بدؤوا في التوافد على المكان لمعرفة ما يُعطّلهم وحاول بعضهم المُشاحنة مع الفتى ظنًا منهم أنه صاحب السيارة، وتولّى السائق الآخر شرح ما حدث لهم وإن عجز عن شرح كيف حدث، قبل أن يُخرج هاتفه المحمول من جيبه ويطلُب الشُرطة للإبلاغ عن الموقف ويُعطيهم العنوان..

أنهى اتصاله، ووقف يُشير للسيارات الأُخرى لتلتف حوّل السيارة المتوقفة وتمضي في طريقها قبل أن تتغيّر الإشارة مرّة أُخرى للأحمر، ثم اقترب من الزجاج وهو يفحص بعينيه السيارة من الداخل جيدًا، وارتسمت على وجهه علامات الدهشة، ثم التفت للفتى الذي كان عائدًا من سيارته بعد أن ركنها إلى جانب الطريق ليسأله:

- لم تره يرتجل من سيارته...؟

- كنت أتحدّث إلى صديقتي ولمحت بزُكن عيني ضوء

فلاش يصدُر من ناحيته فظنتُ أنّه يصوّر نفسه وبعدها بثانية واحدة رفعت عيني ناحيته فلم أره في مكانه، لا أعتقد أنه كان لديه الوقت الكافي للنزول من السيارة أصلًا..

صمت للحظة ثُم تابع في استغراب:

- ثم كيف سيفعلها والباب موصد وحزام الأمان في مكانه..؟

وبقي سؤاله طافيًا فوق رؤوسهم بدون إجابة، في نفس اللحظة التي تناهي إلى مسامعهم فيها صوت سرينة الشُرطة التي تقترب من بعيد، ليُنافس صوت (أم كلثوم) الصادر من مذياع السيارة وهي تنوح..

«فات المعاد فات فات المعاد»..

***

ارتفعت طرقات على باب المعمل الداخلي، أعقبها لحظات من الصمت، قبل أن يُعاود الطارق طرقه في إصرار حتّى أتاه صوتُ رجل عجوز من الداخل يدعوه للدخول في هدوء، فدلف في سُرعة وهو يلهث ويتطلّع حوله في المعمل الذي كان عبارة عن غُرفة واسعة للغاية، امتلأت بمُعدات وشاشات كثيرة وأدوات علمية تبدو شديدة التعقيد، وعلى إحدى هذه الشاشات ارتسمت أرقام وأشكال بيانية تتحرّك بسُرعة وتناغُم، يتوسطّهم رقم ٧٦ في دائرة مُتألّقة باللّون اللّبني الفاتح تنبُض أطرافها بشكل هادئ ومُريح..

التفت الرجل حوله وهو يجول بعينيه في الغُرفة حتّى توقّف عند قُدس أقداس الغُرفة، مرآة ضخمة تحتل أغلب مساحة الحائط الغربي، اقترب منها ببُطء وهو يتأمّل تفاصيلها في رهبة، كانت ضعف ارتفاعه بعرض حوالي المترين، يتوسط ضلعها الأُفقي الأعلى رأسُ كهلٍ ذو ملامح هادئة ونظرة حزينة، بلحية مجدولة مُرسلة للأسفل، ترتاح على نقش بارز لساعة رملية بدورها تستقر على حرف C بالإنجليزية، مدّ الرجل أنامله ليتحسّس الإطار الخشبي المنقوش بزخارف مُتداخلة تحمل طابع أثري مألوف وانتابته ارتعادة خفيفة غير مفهومة وهو يُغمغم في رهبة:

- كم أنتِ مُخيفة بالرغم من تفاصيلك رائعة الجمال..

- الجماد لا يُخيف يا (مُخلص)..

انتفض في مكانه في قوة وسحب يده بسُرعة وهو يلتفت لمصدر الصوت الذي تابع بنفس اللهجة الخالية من التعبير:

- نحن المُخيفون دومًا..

انتصب في مكانه وشد قامته احترامًا للرجل وهو يرد في لهجة خجلى:

- بالطبع يا دكتور (أمجد)، معذرةً.. لم أملُك القُدرة على كبح فضولي..

مط دكتور (أمجد) شفتيه ولم يُعلّق وهو يضع يديه في جيوب معطفه الأبيض الطويل وينسحب لغُرفة جانبية تقع في نهاية الغُرفة ذات المرآة ويختفي بداخلها للحظات قبل أن يعود وفي يده لوح إلكتروني تتراص عليه أرقام ورسومات بيانية ملوّنة ورفعه أمام عين (مُخلص) وهو يقول في حزم:

- هل ترى هذه الأرقام...؟ هل تعلم ما يعنيه هذا...؟

لم ينبس (مُخلص) ببنت شفة واكتفى بنظرة سريعة على الشاشة المُضيئة في الوقت الذي تابع فيه دكتور (أمجد) وكأنه لم يتوقع إجابة منه:

- هذا يعني أن التوابع قد بدأت بالفعل، وأن نافذة الإصلاح تتقلّص مع الوقت، ونحن مازلنا مكتوفي الأيدي..

- احم، لهذا أتيت الآن يا سيدي، لأُريك هذا..

قالها وهو يمد يده بمظروف متوسط الحجم أخرجه من جيب معطفه الداخلي، فوضع دكتور (أمجد) اللوح الإلكتروني على المنضدة المجاورة وتناول عويناته من جيب معطفه العلوي وارتداها في حركة سريعة، ثم التقط المظروف منه وفتحه ليجد مجموعة من الصور الفوتوغرافية فضّها ليُمعن النظر فيها..

كانت الأولى تُظهر مبنىً حجري قديم من أوائل القرن الماضي، ينقسم سوره إلى صفّين من النوافذ، وجميعهن مسدودات بقُضبان معدنية، ويعلوه أسلاك شائكة مُمتدة بعرضه يتخلّلها كشّافات إضاءة قوية موجّهة للداخل، كان تركيز الدكتور (أمجد) تحديدًا مع تلك النافذة في الركن الأعلى من السور أقصى اليمين، والتي ينبعث منها ضوء أزرق خافت وكأن قاطنها يلهو بكشّاف موبايل وسط الظلام الدّامس..

كانت الصورة تحمل على ظهرها اسم (السيد شافعي سند القناوي) بالقلم الأزرق الجاف..

كانت ضربات قلبه تزداد مع كل ثانية تمُر..

ثم ما لبث أن وضع الصورة جانبًا وتطلّع إلى الصورة الثانية والتّي كانت تُظهر مُستشفى ما مُحاطة بنطاق من الشُرطة بأنوارهم المُميّزة التي تنعكس على وجوه المُتفرجين خلف الشريط الأصفر إيّاه، لم يهتم بهذه الصورة كثيرًا بل وضعها جانبًا سريعًا وسحب التالية لها..

كانت لنفس المستشفى ولكن من زاوية أُخرى لضابطين يتحدّثان مع أحد المُمرضين في ردائه الأزرق والذي تبدو على ملامحه أمارات التوتر والقلق وهو يُشيح بيده في الهواء ويقول شيئًا ما في عصبية..

ألقى نظرة على ظهر الصورتين، كانتا تحملان اسم (عبد الجليل حسين المهدي)..

وضع دكتور (أمجد) الصورتين مع أختهما وألقى نظرة على الصورة التي تليهما والتي تبدو وكأنها أُلتُقطَت من زاوية أُفقية وكأن من التقطها كان يقف في مكان ما على الرصيف ويظهر فيها صف من السيارات في إشارة مرور وقد توقّفت الإشارة على اللون الأخضر، في حين أن السيارات في حالة سكون وسائقوها ينظرون بتحفّز للأمام، ربما لأن السيارة في أول الطابور كانت خالية من الركّاب في حين يبدو مكان السائق لمعة خافتة من اللون الأزرق مع ضباب خفيف لا يكاد

يُرى تشكّل على هيئة شخص، أو أن الشخص الذي احتل مقعد السائق.. قد ذاب في الهواء..

حملت الصورة اسم (سامح روماني شُكرالله) على ظهرها..

مطّ دكتور (أمجد) شفتيه وهو يفرّ في باقي الصور بسُرعة وعدّ منهم العشرين صورة، فألقاهم على الطاولة بجانبه ومضت ثوانٍ وهو يتطلّع إليهم بنظرة خاوية ثم تمتم (مُخلص) في شرود:

- إذًا فقد بدأت التوابع بالفعل، وأسرع مما كنت أظن..

ثم سأل بنفس الشرود:

- هل انفجرت المستشفى بعد..؟

هزّ (مُخلص) رأسه وهو يُجيب في خفوت:

- نعم يا سيدي، مُنذ بضع ساعات..

- و(شريف)...؟

- هو من يُشرف على التحقيق..

أخذ دكتور (أمجد) نفسًا عميقًا قبل أن يُلقي نظرة عميقة على المرآة وهو يقول بلهجة آمرة:

- أُريده هنا يا (مُخلص)، لابُد أن نُنهي هذا الأمر قبل أن

يخرُج عن السيطرة أكثر من هذا، كلّما مضى وقت كلّما ابتعدنا عن نُقطة الالتقاء وصار الإصلاحُ صعبًا، تأثير الفراشة قاتل ولا يرحم..

ثم اتّجه في بُطء نحو الحائط المُقابل الذي يعلوه مُخطّط رأسي لطائرة ومقاعدها على شكل مُربّعات مُرقمّة وعلى كل مقعد اسم ما، وأمسك قلم تخطيط فوسفوري ورسم دائرةً حول المقعد الذي يحمل اسم (القناوي) و(عبد الجليل) و(سامح) ثم تابع باقي الأسماء التي على الصور قبل أن يتطلّع إلى باقي الأسماء ويركّز بصره على المربع الذي يحمل اسم الطيّار وهو يُتابع:

- لابُد أن يعلم (شريف) ما حدث، فشخص بعقليته يستطيع أن يُساعدنا في إصلاح ما أتلفناه..

ولم يكُن (مُخلص) مُتفائلًا وإن يثق فيه ثقة عمياء..

فأومأ برأسه في موافقة وخرج من المعمل في سُرعة..

***

اندفعت سيارة ڤان مُسرعة تشُق طريقها في ذلك الطريق الجانبي غير المأهول وسط مقابر القلعة، مُثيرة خلفها عاصفة من التراب غطّت لونها الأزرق والشعار المُميّز لإحدى المحطّات الإخبارية الشهيرة، وكادت أن تصدم في طريقها

كلبًا هائمًا على وجهه يتشمّم الأرض في كسل، فمال قائدها بمقودها بعُنف لليمين مُتفاديًا إيّاه، ثُم أخرج رأسه صائحًا فيه وهو يسُب سبّة بذيئة ويبصُق خلفه، ثُم يُكمل طريقه عبر الشوارع الضيقة برعونة حتى وصل لغُرفة صغيرة مبنية من الطوب النيئ في نهاية شارع شبه مُظلم وتوقف أمامه بصوت عالي لتُكمل عاصفة الأتربة طريقها نحو المنزل في نفس اللحظة التي فتح فيها بابه رجلٌ غامض، يقف في الظلام فلا يكاد يُرى من ملامحه شيء وإن التمع ضوء سيجارة تتدلّى من رُكن فمه أضاءت شُعلتها دائرة صغيرة من وجهُه..

لم يكد السائق يترجّل من (الڤان) حتّى سأله الغامض في صرامة:

- ما كل هذا الضجيج أيُها الأحمق...؟!

- لن أسمح لك يا سيد (...

- اخررررس...!

قاطعه الرجل بصوت هادر وهو يُكمل بلهجة بدت للسائق مُخيفة:

- قلت لا أسماء، ولا حماقة...! كل مُهمّتك كانت الاستيلاء على السيّارة والإتيان بها لهُنا، ولا أتذكر أن من ضمن مهامك

إيقاظ الموتى بكل هذا الضجيج والرعونة..!

همّ السائق أن يعترض مرّة أُخرى ولكن الرجل استطرد بنفس اللهجة:

- لا تُحاول، لم تقبض لتتكلّم، مُهمتك انتهت، ستجد مظروف مُماثل للذي استلمته من قبل بالداخل على الطاولة، خذه وارحل.. أمامك عشرُ ثوانٍ..

وهنا ظهر معدن الرجل الرخيص وتحول استياؤه للهفة ولمعت عيناه بنظرة كلّها جشع قبل أن يندفع للداخل في سُرعة مُتلهفًا للحصور على خمسة عشر ألفًا آخرين يضمّهم للمظروف الأول وينطلق في رحلته للبحث عن صفقة حقيرة أُخرى..

ولكنه ما إن دخل بجسده كلّه داخل المنزل حتّى سمع صوتًا مكتومًا وكأنّه فلّينة زُجاجة تفور فتنطلق من مكانها بفعل الضغط المحبوس بداخلها..

ثانية واحدة فقط..

ثانية هي كل ما استغرقه ليشعُر أن الزمن قد توّقف فجأة على إثرها..

وانتهت صلته بهذا العالم..

أظلمت الدُنيا أمامه مرّة واحدة وشردت عيناه وقد هربت منهما الحياة وانسابت روحه إلى خالقها وجسده يتهاوى على ركبتيه ليستقر عليهما للحظة قبل أن يُكمل طريقه ويسقُط جثّة هامدة على وجهه بثُقب دامي في خلفية رأسه..

رفع الشاب الغامض مُسدّسه لفمه ونفخ في ماسورته المزوّده بكاتم الصوت في خفّة قبل أن يُتمتم في لا مُبالاة:

- ألم أقُل لك أنّك أحمق، هل توقّعت أنّي سأدعك ترحل وقد رأيت وجهي وعرفت هوّيتي...؟

قالها وألقى المُسدّس فوق الجُثّة وهو يُكمل في سُخرية:

- أعتقد أنّك ستظل هُنا فترة معقولة قبل أن يكتشفك أحد، رُبّما تكون محظوظًا ولن تكتشفك القوارض أولًا..

نظر عبر الزُجاج للخارج ليتأكّد أن لا أحد هُناك وهو يخلع قُفازًا كان يرتديه في يدُه، قبل أن يلتقط لفّة ورقية كبيرة اسطوانية الشكل من على رف جانبي ويخرج من الغُرفة في هدوء وهو يُدندن لحنًا ما..

تأكّد من إغلاق الباب خلفه جيدًا ثم اتّجه نحو السيارة وفتح باب السائق ليُفتّشها سريعًا حتّى وجد مظروفًا مُغلقًا تعرّفه على الفور، خبأه في جيبه، ثم ترجّل منها وشرع في

فرد اللفة الورقية وهو يُزيل الغُلاف الخلفي من عليها ليُظهر الطرف اللاصق فيها حتّى فرد مساحة تكفي جانب السيارة كلّه، وشرع في لصقه عليه ليُغطّي الشعار الإخباري تمامًا..

لم تستغرق العملية أكثر من دقائق ثلاث، انتهى منها ثم تراجع قليلًا للوراء وألقى نظرة سريعة على الجانب كلّه ومطّ شفتيه وهو يُغمغم:

- ليس أفضل أعمالي ولكنّه سيؤدّي الغرض..

ألقى نظرة سريعة حوله مرّة أُخرى ليتأكّد أن لا أحد يُشاهد، قبل أن يُلقي باقي لفّة الورق بعيدًا ويركب السيّارة وينطلق بها لوجهة غير معلومة..

***

رن هاتف (عظيم) للمرّة الثانية، فانتزعه من أفكاره التي منعته من الانتباه له من أول مرّة، فألقى نظرة سريعة على شاشته وهو يُجيب:

- (شريف)..

ثم صمت مُستمعًا قبل أن يقول:

- آه بالطبع، انتهيت من التحقيق وعرجت على منزلي قليلًا، وأ.. أها.. شخصٌ آخر...؟ هممم، حسنًا حسنًا.. سأوافيك في

المكتب إذًا.. سلام..

أنهى المكالمة وتطلّع للحظات إلى الشاشة في صمت ثم وضع الهاتف في جيبه وقام من مكانه وأطفأ الأنوار وخرج من منزله مُستقلًا سيارة أُجرة للمكتب..

ولم تمض رُبع ساعة حتّى كان يدلف إلى الغُرفة ليجد (شريف) واقفًا أمام خريطة مُضيئة مُثبّت عليها بدبابيس ملونة ورقتين في مكانين مُختلفين، فألقى التحيّة عليه واقترب من الخريطة وهو يُمعن النظر فيها..

كانت الأوراق تحمل أسماء (عبد الجليل) و(القناوي)..

أفسح (عظيم) المجال لـ (شريف) الذي اقترب من الخريطة وفي يده ورقة ثالثة ثبّتها في مكان مُختلف وتراجع قليلًا للوراء ليُلقى نظرة أشمل من بعيد، قرأ (عظيم) اسم (سامح) على الورقة الثالثة في عدم فهم وهو يستدير إلى (شريف) مُتسائلًا:

- حسنًا، ماذا يحدُث هنا...؟

نظر إليه (شريف) مُتسائلًا بدوره:

- ماذا تم في تحقيق مُستشفى (...)...؟

- أممم، ليس الكثير، تحدّثت مع مُمرض يُدعى (كريم) كان

شاهد عيّان وآخر شخص رأى ذلك الطبيب يدخُل إلى الغُرفة الجانبية المُلحقة بغُرفة العمليات قبل أن يختفي تمامًا بدون أثر.. الغُرفة صغيرة، لا نوافذ ولا تحتوي أي مخارج أُخرى ولا حتّى منافذ تهوية شبكية، فهي تعتمد على التكييف المركزي في الغرفة الرئيسية.. باختصار، لا ثُقب يُمكن لهذا الطبيب أن يختفي فيه..

عقد (شريف) حاجبيه وهو يُفكّر في عُمق، ثم سأل (عظيم) فجأة:

- ألم يلحظ ذلك المُمرض شيئًا غريبًا...؟ صوت أو..

قاطعه (عظيم) قائلًا:

- أو ضوء...!

ازداد انعقاد حاجبي (شريف) في قوّة وهو يستمع إلى (عظيم) وهو يستطرد في انفعال:

- قال إن في الثواني التي سبقت اختفاء الطبيب تعالى من خلف الستار صوت يُشبه صوت كهرباء ورأى ضوءًا أزرقًا باهتًا لمع للحظات من الغُرفة بالرغم من عدم وجود أي مصدر إضافي داخل الغُرفة الصغيرة قد يُسبّبه، وبعدها مُباشرةً دخل ليجدها خالية ولا أثر للطبيب..

تمتم (شريف):

- وهنا أيضًا، هممممم..

لم يفهم (عظيم) مقصده فتساءل في حذر:

- امممم، هلّا تُشارك صديقك التائه في الظلام هُنا...؟

أخبره (شريف) بما حدث في زيارته للسجن وشهادات المساجين وطاقم الحراسة وما رآه على شاشة كاميرا المُراقبة..

وشرح لهُ كيف أن الحادثين اشتركا في الصوت الغريب والضوء الأزرق الخافت الذي شهدهما كلٌ من قاطني السجن وطاقم التمريض في المُستشفى..

ثم التفت في سُرعة نحو مكتبه وأخذ يعبث في أوراقه قليلًا قبل أن يلتقط ملف حادث اختفاء (سامح) ويُراجع شهادة السائقين قبل أن يتجمّد للحظة وهو يرفع الورقة ويُديرها في اتجاه وجه (عظيم) مُشيرًا بأصبعه إلى الفقرة الثالثة والتي يصف فيها الفتى صاحب السيارة الثانية لمعة ضوء الفلاش قبل اختفاء (سامح) من سيارته..

قرأها (عظيم) ثم رفع عينيه إلى (شريف) ومازالت علامات عدم الفهم تبدو على ملامحه وهو يسأله:

- إذًا فبغض النظر عن ذلك الصوت الغريب فالضوء اللّامع هو عامل مُشترك بين الثلاث حوادث، ولكن ماذا...؟ أعني ما المفترض أن يكون سببه أو مدى علاقته بما حدث...؟

- لأكن صادقًا معك، ليس لديّ أي فكرة يا (أحمد).. ولكن الموضوع يزداد غموضًا كل لحظة..

- لا أدري ولكن حادث انفجار المستشفى يبدو بعيدًا جدًا الآن..

قالها (عظيم) وهو يتّخذ مجلسه على كرسي وثير قُرب النافذة، ويضع يده على جيبه لثوانٍ كمن يشعُر باهتزاز هاتفه، وهو يهُم بإشعال سيجارة، فبادره (شريف) بلهجة شبه صارمة قائلًا:

- أعتقد أن هذا ليس وقت الراحة يا (أحمد)، وهل هذا هاتفك...؟ تحقّق منه لرُبّما يكون تحديث في موضوع المُستشفى..

ترك (عظيم) سيجارته وهو يُخرج هاتفه من جيبه الآخر ويتطلّع فيه ويهُز كتفيه ألّا جديد في الأمر، نظر (شريف) لجيبه الأول لثانية قبل أن يُشير إلى الخريطة وهو يستطرد:

- أُريدك أن تُجري بحثًا وراء هذه الأسماء، أُريدك أن تنبش ماضي كل واحد منهم، أُريد أن أعرف هل هناك علاقة ما

بينهم أم هم مُجرّد ضحايا لقوى كونية ما تتصرّف بعشوائية، هل تفهمني..؟

ارتسم شبح ابتسامة ساخرة في رُكن فم (عظيم) وهو يُجيب:

- قوى كونية نعم، فهمت، أرى أنّ حسّك الساخر قد بدأ يزدهر من كثرة مُجالستي..

تجاهل (شريف) لهجة السُخرية في كلامه وسأله وهو يتّجه صوب الباب عقب ارتفاع صوت طرقات مُصرّة عليه:

- وبالمُناسبة، من يتولّى موضوع تحليل عيّنات انفجار المستشفى...؟

قالها وفتح الباب للشاب الذي اعتدل في احترام وناوله (فلاشة) صغيرة مع ملف رمادي اللون يضُم بضعة أوراق، ثم دار على عقبيه ورحل في خطوات واسعة في الوقت الذي أغلق فيه (شريف) الباب وعاد إلى مكانه مُستمعًا إلى (عظيم) الذي أجاب بلهجة مُحايدة وهو ينظر عبر النافذة إلى الفراغ:

- لا أدري بالتحديد، رُبّما (سليم) أو (عماد).

وصّل (شريف) (الفلاشة) باللابتوب الخاص به ثم فتح

الملف وسحب منه عدّة أوراق التهم سطورهم بعينيه في سُرعة قائلًا:

- هلّا تواصلت معهما ليُسرعا قليلًا...؟ يُمكنهما أن يتّصلا بي مُباشرةً على رقمي الخـ...

بتر عبارته فجأة وران الصمت على المكان لدرجة أن (عظيم) التفت إليه ليجده مُقطِّبَ الجبين كعادته كلّما فكّر بعُمق فعاجله بلهجة ساخرة:

- أطربني..

لم يُجبه (شريف) على الفور، بل سحب نفسًا عميقًا ورفع عينيه إلى الخريطة لثوانٍ وهو يجول بعينيه في أنحائها قبل أن يلتفت إليه قائلًا في ضيق:

- يبدو أن هذه الخريطة ستمتلئ أقرب ممّا توقّعت..

نظر إليه (عظيم) في تساؤل، ليُكمل بنفس اللهجة وهو يُناوله الملف:

- ما لا يقل عن دستة أشخاص اختفوا بنفس الطريقة من ٤ مُحافظات مُختلفة، لم أُدقق في كل حالة ولكن يبدو أن لدينا نفس العامل المُشترك في أغلبهم، ضوء أزرق باهت أو لامع زامن اختفاء الشخص..

اتّسعت عينا (عظيم) في دهشة وقد زالت سُخريته ولا مُبالاته وهو يتناول الملف من يده في توتر ويفرّ فيه في سُرعة..

أمّا (شريف) فتابع وهو يقترب من الخريطة ويمُر بأنامله عليها:

- لديك شيخ اختفى في الطريق للمسجد في قرية، جُندي مُتقاعد اختفى في شاليه في البحر الأحمر، ربّة منزل في السوق، عامل بناء، مُديرة وحدة صحّية، لواء شُرطة، ...

وهنا لم يستطع أن يمنع نفسه، فالتقط سيجارة من عُلبة سجائر (عظيم) من على الطاولة وأشعلها قُرب النافذة وسحب منها نَفَس عميق وهو ينظر عبر النافذة، في حين ألقى (عظيم) الملف على المكتب، واستند بظهره إلى الكرسي وهو يستند بذقنه على قبضته المضمومة للحظات، قبل أن يُشير إلى (الفلاشة) وهو يسأل (شريف):

- ماذا في هذه الـ (الفلاشة)...؟ هل شيء لو علاقة بالموضوع...؟

تحرّك (شريف) بسُرعة نحو اللابتوب وهو يقول مُتذكرًا:

- نعم، عليها تسجيلات كاميرات المُراقبة..

وبضربات سريعة على لوحة المفاتيح ولج (شريف) لمحتويات الفلاشة وبدأ في تشغيل الفيديوهات واحدًا تلو الآخر..

كانت الفيديوهات مُجمّعة من كاميرات داخل السجن، في ممرّاته وزنازينه وأُخرى خارجه تُسجّل ما يحدُث خارج أسواره، وكاميرات أُخرى داخل المستشفى في الممرات وغُرف العمليات، بالإضافة لكاميرا مُراقبة في إشارة المرور، وكان (شريف) يُوقف أي لقطة قد يراها تُثير شكه ويُمعن النظر فيها مع (عظيم)، يتمحّصان في كل تفصيلة ويُعيدانها أكثر من مرّة..

استمر الأمر لأكثر من ساعة ونصف..

بلا جدوى..

لم تُظهر الفيديوهات الداخلية الكثير ولم تختلف أحداثهم عن شهادة الشهود ولكن..

عندما بدأ في مُراجعة أحداث الكاميرات الخارجية للسجن، هنا فقط انتفض جسد (شريف) في قوّة وهو يوقف العرض ويُشير لركن الشاشة وهو يقول في انفعال:

- اللعنة! إنه هو...!

- هو من...؟ من هذا...؟

كانت هذه من (عظيم) الذي اقترب بوجهه من الشاشة وهو يُحاول التركيز في وجه الشخص الذي بدا واقفًا على مسافة من السور يُراقب شيئًا ما بالأعلى، ولكنّه لم يستطع أن يُحدّد ملامحه من هذه المسافة، ولم يبدُ مألوفًا لهُ، في حين تابع (شريف) بنفس اللهجة وأصابعُه ترتعش من الانفعال وهو يُشير إلى الشاشة:

- هذا هو نفس الرجل الذي رأيته عند انفجار المستشفى يُدوّن شيئًا ما في مُذكّرته...!

وقبل أن يُعلّق (عظيم) كان (شريف) قد أنهي عرض فيلم كاميرا المُراقبة الخارجية للسجن ويُسجّل توقيت ظهور الرجل الغامض في مُذكرّة خارجية ويبدأ عرض فيلميّ المستشفى الخارجي وإشارة المرور في وقت واحد جنبًا إلى جنب وهو يسحب شريط العرض دقيقة تلو الأُخرى حتّى وجد ما يبحث عنه أمام عيني (عظيم) المُندهشتين..

كان نفس الرجل يقف نفس الوقفة وهو يُراقب ويُدوّن شيئًا ما في مُذكرّة صغيرة يحملها..

وهنا طرق (شريف) على شاشة اللابتوب بأصبعه قائلًا:

- هذا هو بداية حل اللغز يا (أحمد)...!

ثم التفت إليه وهو يُتابع:

- دع (عمرو) من قسم الديجيتال يُحاول أن يُنقّي ملامح وجهه قليلًا من الفيديو ويُطابقها بقاعدة البيانات لدينا لنرى من يكون..

ثم سحب (الفلاشة) من اللابتوب وناولها لـ (عظيم) قبل أن يُغلق شاشة اللابتوب ويلتقط مفاتيح سيارته من على المكتب ويتّجه نحو الباب، فسأله (عظيم):

- إلى أين...؟

- إلى اللامكان، أرغب في تصفية أفكاري قليلًا، ربّما أهيم على وجهي بلا هدف أو أتّجه للمنزل، لا أدري بعد، سأنتظر مُكالمتك..

قالها وصفق الباب خلفه في قوة..

***

لم تمض دقائق إلّا وكان ينطلق بسيارته بدون وجهة معينة، مُستسلمًا للطريق تمامًا..

كان بحاجة للتفكير بعُمق، فترك العنان لخياله..

كانت الساعة قد قاربت على مُنتصف الليل بالفعل، وقد

مر أكثر من ٣٦ ساعة منذ ترك منزله وإن كان يشعر أنه في الشارع منذ أسبوع لكثرة الأحداث التي مر بها، بداية بانفجار المستشفى، فالجثة الغامضة التي ظهرت فجأة وحتّى هذه اللحظة لا يدري لمن تعود ولا ما سبب حالتها المُتداعية أكثر من باقي الجُثث، مازال في انتظار نتيجة التحليل..

كان لديه ذلك الشعور أن وراءها لغز هي الأُخرى..

ارتسم على وجهه تعبير بالضيق عندما وصل لهذه النقطة، فلا يدري لم يستغرق الأمر كل هذا الوقت، وهنا أمسك هاتفه المحمول وضرب رقم ما وانتظر رنين الجرس حتّى رد عليه أحدهم فسأله في حزم:

- (عماد)، كيف حالُك...؟ هل أنت من يتولّى موضوع المستشفى...؟ جميل جدًا.. ما أخبار نتيجة التحاليل...؟ لا، الانفجار...؟

قالها وصمت قليلًا ليستمع وهو يُهدئ سُرعته ويتّجه يمينًا للطريق البطئ، قبل أن يرُد في ضيق مكتوم:

- حسنًا، فهمت ولكّني لا أعتقد أن إصلاح شيء بسيط كهذا يستغرق كل هذا الوقت يا (عماد)، أُريد هذه النتيجة في أسرع وقت مُمكن، الوقت حرج.. حسنًا، إلى اللقاء..

أنهى المُكالمة بعصبية وألقى هاتفه بجانبه وهو يُتمتم في

غضب:

- بضع بهائم، أنا أعمل مع بضع بهائم..

تابع طريقه وهو يُشعل سيجارة ويأخُذ منها نفسًا عميقًا، ثم يزفُره خارجًا بقوة، كان يجول بعينيه في الطريق مُراقبا أعمدة الإنارة ويستعيد تفاصيل الأيام القليلة الماضية..

كان يُؤمن أن الحل دومًا في لقطة ما مرّت دون أن ينتبه إليها أحد..

اعتصر مقود السيارة بقبضته في عصبية، ورمى السيجارة وأشعل غيرها دون أن ينتبه أنها مازالت لم تنتهي..

جُثة غامضة وناس تختفي بدون أثر لا يتركون خلفهم سوى ضوء لامع...؟

ما هذا الهُراء...؟!

كان يُدرك أن هذه ألاعيب عقله المُنهك من ضغط يومين بدون نوم أو أكل، لا يستهلك سوى السجائر ولا يرتاح من التفكير في ألغاز ليس لها حلول..

وذلك الرجُل الغامض الذي يظهر في كل الفيديوهات..

هو لقطة لم ينتبه إليها أحد..

حتّى الآن..

كان يدوّن في مُذكّرته في حادث وكأنه عالِم أو باحث يُسجّل مُلاحظاته..

فكيف كان يعرف مكان وميعاد كل حادث...؟

وما مدى اهتمامه بما يحدث ليُسجّله لديه...؟

هل هو من تسبّب في كل حادث...؟ كيف...؟ ولم...؟

وإن لم يكن هو المُتسبّب، إذًا فمن هو...؟

وهل كان يعرف عن كل حادث قبل وقوعه...؟ وأيضًا كيف...؟

ولمَ لم يُبلّغ...؟

ما مصلحته في الكتمان...؟

كمية من الأسئلة كانت تُلهب عقله وتكاد تدفعه للجنون..

كان يعرف أن السر يقبع في ذلك الرجل، فلو تمكّن من معرفـ...

قاطع أفكاره رنين هاتفه على المقعد بجانبه، فألقى عليه نظرة سريعة ثم التقطه وأجاب في سُرعة:

- (أحمد)، قُل لي أن لديك جديد..

أتاه صوت (عظيم) المُتردّد وهو يُجيب:

- أممم، لدي جديد ولكن لا أدري فيما سوف يُفيد..

- أنا سأُقرّر ما إذا كان سيُفيد أم لا، أخبرني..

- أمممم، حسنًا، تمكّن (عمرو) العبقري من استخلاص صورة شبه واضحة من وجه الرجل في الفيديوهات في وقت قياسي، ثم مرّرها في برنامج تحديد الملامح المُتصل بقاعدة بياناتنا، احم، وأنت تعلم يا (شيكو) أن قاعدة البيانات مُتّصلة بجميع قواعد البيانات الأُخرى من أمن دولة وشُرطة عسكرية ومباحث و..

قاطعه (شريف) في نفاذ صبر:

- انجزني يا (أحمد)...! لست بحاجة لحملة تسويقية هنا..! ماذا وجد (عمرو)...؟

تنحنح (عظيم) مرّة أُخرى في تردّد، وأجاب:

- احم، حسنًا، أظهر البرنامج نتيجة إيجابية نعم، استطاع أن يتعرّف على الرجل..

كادت قدم (شريف) تخترق أرضية سيارته وهو يعتصر المكابح بقدمه في قوّة، ويتوّقف على جانب الطريق وسط صوت صرير صارخ من إطارات سيّارته وهو يصيح في

(عظيم):

- راااائع...!! من هو...؟! وهل أرسلت أي قوّة لإحضاره...!؟؟

- امممم، المُشكلة ليست فيمن هو، ولا لم أُرسل أحدًا، لا أعتقد أنّه في مكان تستطيع أي قوّة إحضاره..

كاد (شريف) أن يجن جنونه وهو يصرُخ في الهاتف بعصبية:

- لا وقت لدينا لهذه الألعاب...! أحضره ولو كان على سطح المريخ...!

قالها ونزل الرد عليه كالصاعقة وشعر أن الدنيا تميد به وهو يستمع لـ (عظيم) الذي حسم أمره هذه المرة وأجاب في حزم:

- حسنًا، هذا الرجل ميّت، مات في حادث سير من ١٠ سنوات..

وكان هذا أكثر مما تستطيع أعصاب (شريف) تحمّله..

وها هو لُغزٌ جديد ينضم لقائمة الألغاز الغامضة..

***

قاربت عقارب الساعة على الرابعة فجرًا، وعم سكون شبه

تام في ذلك المُستودع المهجور قُرب منطقة (المُقطّم) في منطقة مخازن خارج ساعات العمل الرسمية، وعليها خلت تمامًا من البشر، وكونها منطقة شبه نائية عن الطُرق الرئيسية فقد خلت حتّى من المارة مما جعلها تبدو مُخيفة لمن لم يعتد على مثل هذه الأجواء..

وداخل ذلك المستودع لم يختلف كثيرًا عن خارجه، ظلامٌ دامس وصمتٌ تام يتخلّله بين الحين والآخر صوت لا يكاد يُسمع لبعض الفئران التي تعدو هنا وهناك في رحلتها الليلية للعثور على بعض الفُتات..

بُقعة واحدة فقط خالفت الجو العام للمكان..

غُرفة صغيرة..

مُحكمة الإغلاق تقع في نهاية المستودع خلف أكوام من الصناديق الخشبية والمُعدّات المُغطاة بملاءات قديمة كانت بيضاء في وقت من الأوقات واصفرّت الآن مع مرور الزمن، يتسرّب نور أصفر باهت من خلف خصاص نافذتها المُتهالكة التي لم تستطع الاحتفاظ بدُخان السيجارة داخلها فهرب مُتسلّلًا إلى الخارج في إنسيابية راسمًا أشكالًا سيريالية تشي بأنّها ليست أول سيجارة يتم تدخينها، بل هي الحالية من عدد لا بأس بِه من زميلاتها حُرقن في سبيل مُتعة مُدخّنهُن، وكل هذا يتناغم مع صوت مذياع شديد الخفوت يملأ الغُرفة

بصوت إذاعة القرآن الكريم..

مزيج غريب ولكّنه مألوف..

وداخل الغُرفة وعلى الكرسي اليتيم فيها، انكب ذلك الرجل الغامض مُنغمسًا في توصيل أسلاك مُختلفة الألوان والأطوال بحِنكة داخل لوحة إلكترونية متوسطة الحجم تحت ضوء المصباح الوحيد في الغُرفة، كانت اللوحة تنتهي بخُرطومين طويلين ينتهيان إلى وعائين بلاستيكيين بهما سائلان مُختلفا اللّون، أحدهما أزرق والآخر أصفر مُتّصلان بدورهما بشاشة إلكترونية صغيرة..

ومن على بُعد كانت عينان صغيرتان تُراقبانه بفضول قبل أن يأخُذ صاحبهُما قراره بالحركة..

بدا الرجل مُنهمكًا جدًا لدرجة أنّه لم ينتبه لذلك الفأر الذي داعبه فضوله للخروج من مكمنه واستطلاع الأجواء، أخذ يخطو خطوة تلو الأُخرى، ينسل في خفّة تارة ويتوّقف ليُراقب تارة أُخرى..

حتّى وصل للخرطوم المُتّصل بالوعاء الأزرق وبدأ يتشمّمه قبل أن يتحسّسه بأسنانه في محاولة لتقييم سُمكه حتّى يعرف المسافة التي ستقطعها أسنانه حتّى تخترقه..

من المرّات القليلة التي يخطو فيها غريب للمكان، لرُبّما معُه

ما يصلُح للأكل..

وقبل أن يهُم بقضم الخُرطوم انتفض في مكانه بعُنف إثر انغراس سكّين حاد ثبّته في مكانه...!

سحب الرجل نفسًا طويلًا من سيجارته من رُكن فمه وكتمه داخله للحظات قبل أن يزفُره ببُطء وهو ينحني ليسحب السكّين من جسد الفأر، ويمسحه في منديل قديم كان مُلقى بجانبه على الطاولة..

استمر ثوانٍ فيما يفعله ثم رفع عينيه للفأر قائلًا وهو مُغمض إحدى عينيه التي يتهادى إليها دُخان السيجارة للأعلى:

- لا ضغينة يا صديقي، لا ضغينة، قضمة واحدة لن تُشبعك ولكّنها كانت كفيلة لإفساد عملية القرن ونسف خُططي المُستقبلية، إن لم تكُن لتنسفنا سويًا..

استدار إلى الطاولة مرّة أُخرى وهو يستطرد:

- وأنا لن أسمح لمخلوق بفعل هذا..

قالها والتقط المفك الصغير الذي كان في يده قبل إرتكابه لجريمة القتل، وانهمك في تثبيت بعض البراغي الدقيقة داخل اللوحة للحظات، ويتأّكد من أنّها لن تنفصل، مرّ

بأنامله بخفّة على كل توصيلة وراجع مستوى السائلين عند العلامتين المُخصّصتين لهما في الوعائين قبل أن يتراجع بظهره للوراء ويتنفّس الصعداء، مُلقيًا نظرة فخر على ما فعله وارتسمت على فمه ابتسامة سُخرية وهو يتمتم:

- كان لي مُستقبلٌ باهر كمُدرّس فيزياء لولا الشيطان..

ثم نظر إلى ساعته ليتأكد أنّه مازال يتّبع جدوله الزمني، وتأكد أنّه لم يتأخّر فيما كان يفعله قبل أن يبدأ في جمع مُعدّاته الدقيقة وتجهيز نفسه للرحيل..

تأكّد من أنّه لم يترُك خلفه أي دليل قد يؤدّي إليه، حتّى أنّه لمّ أعقاب السجائر ووضعها في كيس صغير ليُلقيها في الطريق..

امتدت يده للمذياع ليُغلقه ولكنّه تراجع في اللحظة الأخيرة وسحبها إليه مرّة أُخرى، وعادت إليه نفس الإبتسامة الساخرة وهو يُتمتم:

- لا، لا بأس بقليل من القرآن، لا نُريد أن يشي بِنا عفريت فأر..

ألقى نظرة أخيرة على المكان ولم تمض العشر دقائق حتّى كانت الغُرفة مُظلمة، صامتة ومهجورة كما كانت قبل مجيئه وخارج المستودع تحرّكت سيارة (ڤان)كبيرة في سُرعة

مُبتعدة عن المكان..

***

دس (شريف) المُفتاح في الباب في تهالُك ودلف إلى شقّته بخطوات بطيئة مُتثاقلة وهو يجُر ساقًا تلو الأُخرى، كانت بطارية طاقته تومض بصورة جنونية وتُنبئ بقُرب فقدانه لوعيه بعد المجهود الخرافي الذي يبذله على مدار الساعة، ومفاجأة تلو الأُخرى كمطارق من الصُلب تهوي على رأسه تصدمه أكثر فأكثر وتستنفد طاقته أكثر فأكثر، آخرها تلك المعلومة التي أفحمه بها (عظيم) وقلب بها الأمور رأسًا على عَقِب..

جُثّة زائدة مجهولة، ناس اختفوا بدون أثر، والآن رجل ميّت يأخذ مُلاحظات..

وهنا توّقف لثوانٍ خلف الباب يُنصت لسكون الشقة، انتابه شعور خفي جعله يُركّز سَمعه في محاولة لإدراك سبب تيّقُظ حواسه بهذه الطريقة، كان إحساسًا أقرب لإنذار في أحشائه لا يدري له سببًا واضحًا ولكنه نمى معه في مهامه ومواجهاته السابقة واعتاد تصديقه..

وإن لم يجد له ما يُبرّره هذه المرّة..

استمر على وضعه كما هو لدقيقة أُخرى، ولكن لم يُقابلْه

سوى الصمت، فعزى ما يشعُر به لإرهاق جهازه العصبي، فقرّر تجاهُله بعد أن اطمئن لاستقرار الأمور حوله..

علّق مفاتيحه مكانهم بجانب الباب وخلع حذائه في طريقه إلى غُرفة نومه عبر الريسبشن الواسع حتّى وصل وهو يقاوم النوم بصعوبة، لم يُضئ النور بل اتّجه نحو سريره مُباشرةً، لن يحتاج للضوء على أيّ حال، ولكنّه توّقف مرّة أُخرى في مُنتصف الطريق وقد عاوده نفس الشعور الخفي بأنه ليس وحده..

ولكن هذه المرّة أقوى..

وهنا لم يجد بُدًا من الانصياع لنداء الخطر، فتسللت أصابعه نحو سلاحه ليسحبه من غمده، ولكن قبل أن تصل إليه أناملُه، انتفض جسده في قوّة وجرى الدم في عُروقه وتبخّر أثر الإرهاق من عقله على ذلك الصوت الهادئ الذي أتاه من كُرسيه المُفضّل في رُكن الغُرفة البعيد قائلًا:

- لا داعي يا سيد (شريف)، لقد جئتُ في سلام..

كانت النصف الآخر من الجُملة يحمل رنّة سُخرية، في الوقت الذي كان (شريف) يُفكّر فيه في استغلال مهاراته وسُرعته في الانقضاض على المُتسلل ولكن إنهاكه الجسدي وظلام الغُرفة جعلاه مُتردّدا لعدم قُدرته على تقدير قوّة

خصمه، الذي بدا وكأنه يقرأ أفكاره فتابع بنفس اللهجة الهادئة ذات اللمحة الساخرة:

- أرجوك، لا تُفكّر في مُباغتتي فأنت لا تعرف مكاني بالتحديد ولا مدي تسليحي ولا حتّى ما إذا كُنتُ وحدي أم معي مُعين، وكما قُلت، لقد جئتُ في سلام، فأتمنّى أن تجعل مُهمّتي سهلة..

ارتفع الدم لرأس (شريف) وقد أثار حنقه هدوء وسخرية ذلك الصفيق، وانتقلت عصبيته إلى صوته وهو يسأل:

- هل أستطيع أن ألتفت على الأقل...؟ أم يجب أن يكون هذا أيضًا خارج نطاق تفكيري...؟

- بالطبع يا سيد (شريف)، فأنا – مهما كُنت – مُجرّد ضيف لديك..

مازالت نفس اللهجة الساخرة تقطُر من صوته، فالتفت (شريف) ببُطء وقد حفرت تعابير العصبية طريقها في ملامحه وهو يواجهُه بجسده كله، كان يقبع في الظلام فلم تظهر ملامحُه في الوقت الذي كان (شريف) يدرس فيه الموقف ويقيس المسافة ليرى ما إذا كان سيستطيع قطعها بالسُرعة الكافية أم لا، خاصةً أنه لا يرى يدي المُتسلّل فلا يدري ما إذا كان يحمل سلاحًا أم لا، فقرّر أن يكسب بعض

الوقت حتّى يُفكر في الخطوة القادمة، فسأل في صرامة:

- والآن هلّا تُخبرني من أنت...؟ وماذا تفعل هنا...؟ وكيف عرفت عُنواني وهو غير مُسجّل في أي سجّلات رسمية...؟

- حسنًا، دعنا نُجيب عن السؤال الأخير أولًا، نحن لا نحتاج سجّلات رسمية لنصل لما نُريد، فنحن فوق الجميع..

انعقد حاجبا (شريف) في قوّة وهو يُنصت بتمعّن في حين استطرد الرجل في هدوء قائلًا:

- أما السؤال الثاني، فإجابته بسيطة، أنت.. أنا هُنا من أجلك أنت..

- ماذا تعني أنّك هنا من أجلي...؟

كان يتحرّك ببُطء في اتّجاه الكومود نحو مصباح السرير، كان يُفكّر في ضرورة رؤية وجه مُتحدّثه في الوقت الذي يلهيه فيه بالكلام ويُماطله ليظل يتحدّث، ولكن الرجل لم يُجبه على سؤاله بل ما سمعُه كان صوت إبرة أمان مُسدّس تُسحب للخلف يُصاحبها صوت الرجل قائلًا:

- تؤ تؤ تؤ، عزيزي (شريف)، قلت لا مُفاجأت..

تجمّد (شريف) في مكانه دون أن يرفع يديه بل التمعت عيناه بغضب عارم انتقل إلى صوته وهو يسأله:

- ومن أنت بالضبط...؟!

ران الصمت للحظات وبدا الرجل وكأنّه لوحة مُجسمّة قبل أن يقول في هدوء:

- يُمكنك أن تُضئ المصباح يا سيد (شريف) ولكن دعنّي أُحذّرك، أي خطوة ستُثير أي لمحة شك لديّ سيُقابلها رد فعل من سلاحي، تفضّل..

تحرّك (شريف) في بُطء حانق نحو المصباح ومال بجسده ليقبض على المُفتاح الذي سقط بين الكومود والسرير ليعُم الضوء الغُرفة ويلتفت (شريف) ليرى وجهه لأول مرّة، فقط لتتسّع عيناه في دهشة عارمة وهو يهتف:

- أنت...؟!!

ثم حل الغضب محل الدهشة وانتفخت عضلاته وجرى الدم في عروقه وهو يرتعش من العصبية، قبل أن تستولي تلك العصبية على تفكيره فيُقرّر أن ينقض عليه وهو يصرُخ:

- ستنـ...

وقبل حتّى أن يُكمل أول كلمة، كان الرجل قد رفع سلاحه وأطلقه على (شريف)..

وشعر (شريف) بصاعقة اخترقت قلبه..

ليسقُط على إثرها جُثّة ساكنة عند قدم الرجل الذي مطّ شفتيه وهو ما يزال رافعًا سلاحُه في الهواء للحظات، ثُم يُخفيه في جيب سُترته الداخلي ويلتقط هاتفًا صغيرًا من الجيب الآخر ويطُلب رقمًا وحيدًا مُسجلًا عليه وينتظر حتى يرد عليه الطرف الآخر ليقول في إحترام:

- تمام يا سيدي، انتهت المُهمّة بنجاح و... أها.. لا تقلق يا سيدي، بخير، هو فقط مُخدّر.. تمام، سآتي به حالًا..

ثم صمت للحظات وهو يقوم من مكانه ويُنهي المُكالمة قائلًا:

- بالتأكيد، تحت أمرك يا دكتور (أمجد)..

***

استعاد (شريف) وعيه بغتة..

لم يشُعر بالوقت بين الحدثين..

وكأن أحدهما أطفأ الأنوار وأناراها مرّة أُخرى..

بهذه البساطة..

وبالرغم من أنّه استعاد وعيه ونشاطه كليةً إلّا أنّه لم يفتح عينيه على الفور بل تعمّد أن يستمر في التظاهُر بفقدان الوعي حتّى يُفكّر في موقفه ويحاول تحديد مكانه، حاول

أن يسترق السمع ولكنّه لم يلتقط سوى أصوات خافتة هي مزيج من هدير خفيف ونبضات وصُفارات قصيرة لأجهزة إلكترونية تعمل في المكان..

لا أصوات لأشخاص غيره..

كانت يداه مُقيّدتين في الكرسي بقيود معدنية غريبة الشكل وإن كانت مُريحة لا تُسبّب له أي ألم، حاول أن يُحرك قدميه ليجدهما مقيدّتين بنفس القيود..

هُنا لم يجد بُدًا من فتح عينيه..

ففتحُهما ببُطء كي لا يؤذيهما الضوء الساطع في الغرفة الواسعة التي وجد نفسه فيها وهو يتململ في مكانه و..و..

توّقف بنظره على نفس الرجل الذي أفقده الوعي جالسًا على كُرسي معدني في رُكن القاعة ينُظر إليه في هدوء ومُنتظرًا إياه أن يستعيد وعيه، وهنا لم يستطع (شريف) تمالُك نفسه فزمجر في عصبية وهو يحاول أن يتخلّص من قيوده وهو يسُب ويلعن ويهتف غاضبًا:

- أيها الحقير...! فُك هذه القيود وقاتل رجل لرجل.. أُقسم أن أ...

- اهدأ يا سيد (شريف)، نحن في صفّك..

هبّ الرجل من مكانه في احترام في الوقت الذي التفت (شريف) فيه في سُرعة نحو مصدر الصوت الهادئ الذي قاطعُه ليجد ذلك الرجل العجوز واقفًا أمام باب يُضفي لما يبدو وكأنها غُرفة جانبية، عقد حاجبيه وهو يوجّه له الحديث قائلًا في عصبية:

- ومن أنت...؟! وهل من هم في نفس الصف يقيّدون بعضهم البعض...؟!

اقترب منه الرجل وهو يبتسم في هدوء، ولفت انتباه (شريف) المعطف الأبيض الذي يرتديه المُتماشي مع الغُرفة الواسعة بمُعدّاتها العلمية التي تبدو مُعقّدة حتّى بالنسبة له مما أعطى له انطباع عام أنه في مُستشفى ما..

توّقف الرجل على مسافة متر من (شريف) وقال موجّهًا كلامه له وهو ما يزال يُحافظ على ابتسامته الهادئة:

- (شريف سراج الدين علي محفوظ)، خرّيج الكلية الفنيّة العسكرية، دُفعة ٢٠١٥ بتقدير امتياز، قسم الهندسة الطبية، انضممت إلى قسمك الحالي منذ ٤ سنوات تقريبًا برصيد قضايا محلولة أعلى من أي ضابط آخر في القسم، أكثر من رائع، راجعت ملفّك أكثر من مرّة، أنا من أشدّ مُعجبيك..

عقد (شريف) حاجبيه ولم ينبس ببنت شفة وهو يُحلّل

المُعطيات الجديدة..

أنّى لهذا الرجل أن يعرف عنه كل هذا...؟

حاول أن يتذكّر ملامحه لرُبّما مرّ عليه من قبل في أي مكان في العمل، أو أن الإدارة تملُك له ملفًا في أرشيفها، فلم يستطع أن يستجمع أي تفاصيل..

تطلّع إلى عينيه الرماديتين اللتين تلمعان خلف عوينات طبّية بإطار ذهبي أنيق يستند على أنف دقيق مُدبّب يعلو شارب مُنمّق ولحية خفيفة مُهذّبة تتصل بشعر أبيض ثلجي يُعطي صاحبه وقار واحترام بالغين، هيئة عامة تُشبه لورد إنجليزي كما قال الكتاب..

والغريب أنه يُعطي إحساس عام بالراحة..

اتّسعت ابتسامة الرجل أكثر وهو يُطمئنه:

- لا تقلق يا سيد (شريف)، أنا لستُ عدوًا، ولا لم نعمل من قبل في أي قضية ولكن..

وصمت لحظة ليضمن انتباه (شريف) الذي لم يكن بحاجة لصمته لينتبه له وهو يُتابع:

- نحن نعمل معًا في نفس المكان..

وهنا ارتسمت على وجه (شريف) ابتسامة سُخرية وهو

يستند بظهره إلى الكُرسي قائلًا:

- حقًا...؟ وهل من درّبك على هذا الدور لم يُخبرك أنّي – وبحُكم منصبي - أحفظ أسماء ووجوه كل من في الإدارة من عامل البوفيه وحتى القائد العام...؟

ثم اختفت ابتسامته الساخرة وحلّ محلها نظرة صارمة وهو يقول في ثبات:

- والآن، هلًا انتهينا من هذا الهُراء وحللت هذه القيود السخيفة قبل أن تُصعّب الأمر عليك أنت والمُهرّج الذي يقبع في الرُكن...؟

ارتسمت ابتسامة ساخرة على وجه الرجل في مكانه في حين لم يتأثّر الرجل ولم تختف ابتسامته من على وجهه، بل لف على عقبيه واتّجه نحو الغُرفة الجانبية وغاب بداخلها للحظات ثُم عاد حاملًا بطاقة هوية صغيرة مُغلّفة في يدُه وأدارها نحو عيني (شريف) المُتسائلتين ليقرأ عليها اسم (د. أمجد رمسيس فهيم) وشعار الإدارة التّابع لها (شريف) الذي يعلم جيدًا أن مثل هذه البطاقات مُستحيلة التزوير، وإن كانت أول مرّة يرى فيها بطاقة مثل بطاقته بدون منصب أو وظيفة..

وهنا أراحه دكتور (أمجد) من التفكير قائلًا:

- لو كانت الحكومة شجرة عائلة كبيرة، فنحنُ العم الذي لا أحد يعرف عنه شيئًا..

ثم وضع البطاقة في جيب معطفه وهو يجذب كُرسيًا ليجلس عليه في مُقابل (شريف) وهو يُشير إلى الرجل الآخر الذي كان لا يزال واقفًا في إحترام:

- أعتقد أنّك قد قابلت (مُخلص)، اسم على مُسمّى.. آه، وبالمُناسبة، أعتذر عن الطريقة التي جئت بها وعلى هذه القيود، كُنت قد طلبت منه أن يأتي بك إلى هُنا بأي طريقة كانت..

ثم ابتسم مرّة أُخرى وهو يُتابع:

- يبدو أنّه استسهل هذه الطريقة البدائية..

ارتسمت ملامح الغضب على وجه (شريف) وهو يُشير بوجهه نحو القيود قائلًا:

- وهل سأظل طوال الوقت بها إذًا...؟

- بالطبع لا، أين أخلاقي...؟.. (مُخلص) هلًا أرحت السيد (شريف) من قيوده.. أثق أنّه لن يرحل أو يُهاجمنا الآن وقد اطمئن واشتعل فضوله لمعرفة سبب وجوده هُنا..

هبّ (مُخلص) من مكانه وضغط زرًا في لوحة صغيرة

مُثبّتة في طاولة بجانبُه فانزاحت القيود المعدنية لأسفل مُطلقةً سراح (شريف) الذي أخذ يتحسّس رسغيه وهو لا يزال يشعُر بالضيق، في الوقت الذي ارتسمت فيه ملامح الجدّية على وجه دكتور (أمجد) وهو يقول:

- والآن كفى إضاعةً للوقت، فهُناك الكثير يجب عليك أن تعرفه والوقت ضيّق..

ثم اعتدل في مكانه وبدأ يحكي من البداية..

***

- دكتور (أمجد)...؟

انتبه دكتور (أمجد) عندما كرّر القائد العام نداءه، فانتفض في مكانه وهو يعتذر:

- معذرة يا سيّدي، لم أنتبه..

- حسنًا، كُنت أسألك هل هذا مُمكن...؟ أعني في ضوء ما وصلت إليه في مشروعك حتّى الآن...؟

جاوبته نظرة حيرى من من عيني دكتور (أمجد) أيقن على أثرها القائد العام أنّه لم ينتبه لأي ممّا قال، فقام من مكانه وهو يُشير نحو لوحة مُثبّت عليها عدّة صور فوتوغرافية، وهو يقول في حدّة:

- هل ترى هذا يا دكتور (أمجد)...؟ هذا هو شُغلنا الشاغل الآن.. أوقفنا جميع مشارعينا ومهامنا.. لن نرتاح، ولن ننام حتّى نصل لمَن وراء هذا..

أدار دكتور (أمجد) رأسه نحو اللوحة ليُلقي نظرة على الصور ومازالت الصدمة مُتمّكنة منه، كانت إحدى الصور تُمثّل وزير الدفاع في بذلته العسكرية، وواحدة مُماثلة لوزير دفاع دولة أجنبية وباقي الصور لما يبدو وكأنّه مسرح لحادث انفجار مروّع ما بين حطام سيارات تبدو وكأنّها معجونة، يختلط بمعدنها الذّائب بقايا أجساد بشرية مُتفحّمة وبرّك من الدماء المُتجمّدة..

كانت المشاهد صعبة على مَن لم يعتد رؤية مثلها مثل دكتور (أمجد)..

وازدادت وتيرة التوتر مع احتداد نبرة القائد العام وهو يُعيد سؤاله مُشيرًا إلى اللوحة:

- أُدرك أن الأمر صعب، ومُتأكّد أنّك لم تمر بمثل هذه الظروف من قبل، لا أحد مرّ بها، والآن.. هل وصلت في مشروعك إلى مرحلة تُمكننا من معرفة مَن فعل هذا...؟

- أممم، أنت.. أنت تعرف يا سيدي أ.. أن الموضوع ليـ.. ليس بمثل هذه السهولة و...

- لا يا دكتور (أمجد)، لا أعرف.. أخبرني أنت..

تنحنح دكتور (أمجد) وكأنّه سيُلقي مُحاضرة قبل أن يُجيب:

- الأمر مُعقّد لدرجة أنّي لن أستطيع شرح الأمر بدون الخوض في مُعادلات مُعقّدة ومُصطلحات تقنية وعلمية ولكن ما يُمكنني قولّه أنّنا وصلنا إلى مرحلة المُراقبة فقط، يُمكننا أن ننظر إلى الأحداث عبر وسط مُناسب يُتيح لنا المُراقبة دون القُدرة على التدخّل أو الانتقال من مكان لمكان..

ثم قام من مكانه وقد دبّت الحماسة في صوته وهو يُلوّح بيده مُتابعًا:

- لن أُخفي عليك سيّدي، كان الأمرُ مُستحيلًا في البداية لدرجة أنّي ظننتُ أنّه مضيعة للوقت ولكن.. ولكن مع الوقت بدأت الأمور تتضّح أكثر..

وأمسك قلم تخطيط ملوّن واتّجه نحو اللوحة وخلع الصور من عليها وألقاهم على طاولة قريبة ثم بدأ برسم خط مُستقيم بنُقطتين في بدايته ونهايته وسهم في مُنتصفه يُشير إلى اليمين وهو يستدير للقائد العام مُشيرًا لما رسم قائلًا بلهجة أكاديمية:

- لو تخيّلنا أن أول نُقطة هذه هي بداية الزمن من قديم الأزل، فالنقطة الأخيرة هي اللحظة التي أقف فيها أمامك الآن..

واستدار مرّة أُخرى ورسم سهمًا مُتقطّعًا هذه المرّة، يمتد من النُقطة الثانية ويُكمل طريقه بامتداد الخط المُستقيم، ثم استطرد وهو يُشير للخط الجديد:

- وهذا يجعل الخط المُتقطّع هو المُستقبل بالنسبة لنا في كونه لم يحدث بعد.. ولكن، كما ترى فالسهم دومًا يتّجه في نفس الاتجاه، لأن خط الزمن كالنهر يجري دومًا من المنبع إلى المصب، أي أنّنا دومًا نسير نحو المُستقبل ولا توجد طريقة معروفة تُمكّننا من الرجوع في الزمن، بل ويرى بعض العُلماء أن الفكرة نفسها مُستحيلة، ناهيك من أن بعض الآراء الأُخرى تُلزم للمُسافر أن يتخطّى سُرعة الضوء ذات نفسُه وهذا يُعد – نظريًا – من المُستحيلات.. وذلك يرجع لأن الجسُم الذي يرغب في تخطّي سُرعة الضوء تزداد كُتلته كلّما حاول أن يزيد سُرعته فبالتّالي يحتاج لسُرعة أكبر وعليها تزداد الكُتلة أكثر وهكذا، دائرة مُغلقة لا يُمكّن حلّها، أو على الأقل ليس بعد ..

ثم استدار يواجه القائد العام الذي ارتسم على وجهه تعبير ضجر وهو يُكمل بلهجة تشويقية:

- ولكن الآن يُمكننا أن نسترق النظر..

ذاب تعبير الضجر من على وجه القائد العام وتحوّل إلى اهتمام بالغ وظهر ذلك جليًا في صوته وهو يسأل:

- الآن بدأت تتحدّث، وكيف يُمكننا أن نفعل ذلك بالضبط...؟

هزّ دكتور (أمجد) كتفيه وهو يُجيب:

- لن أستطيع الدخول في تفاصيل تقنية ولكن يكفي أن أقول إن الآن – وبالصُدفة البحتة – تمكنّا من العثور على طريقة لفتح نافذة في نسيج الزمكان..

ثُم ازدرد لُعابه وهو يُتابع:

- الآن لدينا وسيلة عن طريقها يُمكننا أن.. أن.. أمممم.. أن نُلقي نظرة على الماضي يا سيدي..

توقّف دكتور (أمجد) عن السرد وهو يتطلّع إلى نظرة الاستنكار التي اعتلت وجه (شريف) قبل أن ينقلها إلى صوته وهو يهتف:

- خط الزمن...؟؟ زمكان...؟؟ نظرة إلى الماضي...؟؟

ثم أشاح بكف يده وهو يُكمل بنفس اللهجة:

- حقًا...؟! مُستشفى ينفجر وضحايا أبرياء جُثثهم مُسجاة

على طاولات المشرحة الآن، وأهلوهم يمرّون بأسوأ أوقاتهم في انتظارهم لدفنهم، وطابور من الآخرين اختفوا بشكل يُعد الأكثر غموضًا مما رأيت في حياتي، وأهلوهم بدورهم ينتظرون تفسيرًا عادلًا لما حدث لذويهم، وأنت تختطفني بهذا المنظر لتحكي لي ذكرياتك عن فيلم Back to the Future..؟!

قام دكتور (أمجد) من مكانه واتّجه نحو الحائط الغربي الذي تحتلّه المرآة التي كان قد غطّاها بملاءة كبيرة بيضاء فأزاحها واستدار ليرى ملامح الاستغراب وعدم الفهم في عيني (شريف) وهو يتطلّع لتفاصيلها، وتستقر عيناه على رأس الكهل ذي اللحية قبل أن يسأل:

- وما هذا بالضبّط...؟؟

- هذا هو سبب كل هذا يا سيد (شريف)..

حمل صوت دكتور (أمجد) نبرة أسف واعتذار غير مفهومة وهو يستطرد:

- هذا هو (خرونوس)..

***

ارتمى الرجل على سرير صغير بالكاد ضم جسده كاملًا وهو

يلتقم فلتر سيجارة قاربت على الانتهاء بطرف فمه ويُراقب دُخانها وهو يتراقص فوقه في سماء تلك الغُرفة الفقيرة التي ترتمي على أطراف ذلك الحي الشعبي، قُرب الشرابية..

المكان الأنسب لإخفاء (الأمانة) حتّى يحين موعد اللحظة الحاسمة..

عقد ذراعه تحت رأسه مُستعيدًا تفاصيل لقائه الأول معهم..

لا يتذكّر متى كان بالضبط ولكن يعرف أنّه من سنوات..

ذلك الرجل النحيل مُغلّفًا بدخُان سيجار كوبي من عينة سيجار (مارلون براندو) في (الأب الروحي) جالسًا على كرسي وثير، ينظر إليه بعينين زُجاجيتين باردتين من خلف مكتب أثري فخم، لن يندهش لو جلس عليه (لويس الرابع عشر) يومًا ما..

كان قلبه يرتعش بين ضلوعه..

لا يدري ما أقحمه في هذا العالم..

ولكنّه ما لبث أن تذكّر..

شاب صغير قضى أغلب حياته المُزرية في أحد أزقّة قرية ما في إحدى مُحافظات الصعيد حتّى صار في آخر سنة دراسية له، ما زال أمامه مُستقبل طويل شاق..

ارتجفت شفتاه وهو يستعيد ذكريات فترة صعبة من حياته، أسرة فقيرة من ٤ أفراد بعائل واحد فقط، أمّه العجوز بعد وفاة والده عامل السكّة الحديد تاركًا قائمة من الديون والأقساط التي أثقلت كاهلها حتّى نهل منها الزمن ما نهل وتضاعفت آثار عُمرها على وجهها قبل أوانها..

لكم من مرّات سمع صوتها تبكي في قلب الليل من عجزها وقلّة حيلتها وهو يتكوّر مع أخويه على الأرض وأخته الصُغرى على سرير صغير بجانبهم..

تذكّر حذائه المُتآكل وشعره المشعث وملابسه التي بليت عليه..

تذكّر نظراته لأترابه..

والأهم، تذكّر نظراتهم له..

كل الحقد والغل بداخله تحوّل إلى إرادة وعزيمة انصبّت في دراسته، ربمّا لم تكن كافية لنظام تعليمي مُشابه ولكنّها كانت كافيه ليلتحق بالكليّة البحرية تاركًا أمه وأخوته وحياة الفقر وهرب، هرب ولم ينظر خلفه..

رُبمًا كانت المرّة الأولى التي يهرُب فيها..

ولكنّها لم تكُن الأخيرة..

تعوّد أن يهرب..

مزّق صفحة الأُسرة من حياته وبدأ فصل جديد في مُحافظة جديدة ولم يُبال..

صفحة الوحدة والاستقلال..

ومرت السنة تلو السنة حتّى السنة الأخيرة وكانت تلك الرحلة إلى اليونان..

من بين عشرات الركاب على تلك الباخرة السياحية لفت هو انتباهها..

شقراء فاتنة مع والدتها المُسنّة..

كلمة فضحكة فتمشية سريعة فكان لقاؤه بذلك النحيل..

هكذا، كسُرعة انتقالك من سطر لسطر..

علم بعدها أنّها لم تُكن سوى طُعم..

طُعم ابتلعُه كسمكة حمقاء..

ولكنّه لم يفكّر كثيرًا، لرُبّما كان القدر يُصالحُه على ما مضى..

وعلى عيّنة (الأب الروحي)، كان العرض الذي لا يُقال له لا..

١٠ مليون جنيه في مقابل مهمّة واحدة..

لا عقد، ولا خيوط تُقيّده بأي شيء..

وما هي المهمة...؟ لم يعرف..

لم يعرف أي تفاصيل..

قيل له أن عندما يأتي الوقت، وتكون الحاجة إليه ضرورية، سيعرف ماذا عليه أن يفعل..

ولإظهار حُسن النوايا، تم إيداع المبلغ في حساب له تم فتحه مخصوص باسمه في أحد بنوك الكاريبي على أن يظل مُجمّدًا لا يحق له الانتفاع بِه حتّى يقوم المودع بفك التجميد من عليه..

فقط حتى يظل لُعابه سائلًا حتّى اللحظة الحاسمة..

ومع مرور الوقت من بعد اللقاء والانتظار المُترقّب لمُكالمة أو للقاء آخر، أي شيء تُمليه التعليمات التي ستنتهي بفك التجميد عن المبلغ..

لم تأتِ..

لا شيء..

لا مُكالمة ولا لقاء وصار النحيل ذكرى في مؤخّرة رأسه..

فقد الأمل وظن أن الأمر لم يُكن سوى خُدعة..

قام من مكانه على السرير وأطل من وراء زجاج النافذة على ارتفاع ٤ طوابق على الشارع المُزدحم بالأسفل، باعة متجولون وأطفال تلعب وسط المارة وأسراب التكاتك..

ألقى السيجارة المُنتهية وأشعل غيرها..

كان التوتر والترقب يأكلان في جهازه العصبي لدرجة أنّه لا يتذكّر متى كانت المرة الأخيرة التي نال فيها قسطًا كافيًا من الراحة..

قفزت ذاكرته للحظة التي رنّ فيها هاتفه من قُرابة الأسبوعين..

كان في سهرة صاخبة كعادته عندّما شعر بهاتفه يتراقص في جيبه فتناوله وهو يُجيب في غير اهتمام سُرعان ما تحوّل لصمت مُفاجئ انتزعه من ضوضائه فابتعد عن رفقائه وهو يُنصت لصوت كان قد اعتقد أنّه نسيه تمامًا بعد كل هذه السنين..

صوت النحيل..

أخيرًا...!

كان يُخبره بأن وقت الثراء قد حان وأن الفرصة قد دقّت على بابه..

وفي غضون بضعة أيام كان قد عرف كل شيء عن مُهمّته..

ويا لها من مُهمّة..

كان يُدرك أن مبلغ كهذا سيكون في مُقابل كارثة، وأنّها لن تكون مُهمّة هيّنة أبدًا..

ولكنه لم يتوقّع هذا..

نفث دُخان سيجارته وهو يُراجع خطوات الخطة من البداية..

فات أوان التراجُع الآن..

وإذا سار كل شيء كما قُدّر له لن يُدرك أحد الحقيقة حتّى يكون هو على شاطئٍ ما في إحدى دول الكاريبي قُرب ملايينُه يحتسي مشروبًا ذا شمسية صغيرة في الكوب، تحيط به فتيات شبه عاريات يُدلّلونه ويعوّضونه عن سنين الحرمان والفقر..

فيتات لن ينظُرن إلى ملابسه، هذا إذا ما كان يرتدي أي منها أصلًا..

بل سينظُرن إلى أمواله..

وهذا.. سيكون لديه منُه الكثير..

ابتسم في توتر عندما وصل خياله لهذه النُقطة، ونظر إلى ساعته وهو يلتقط هاتفه ويطُلب رقمًا ما ويتبادل بضع عبارات مُقتضبة مع مُتحدّثه، كان يُنصت بعناية وحاجباه يلتقيان في مُنتصف جبهته، كانت الأخبار الجديدة تزيد الأمور تعقيدًا، فأنهى المُكالمة وهو يجمع أشياءه ويُحاول أن يُطمئن نفسه..

١٠ مليون جنيه في مقابل ضغطة زر..

حسنًا، ليس الأمر بالصعب..

هو فقط هذا التوتر اللعين، وإن كان مفهوم سببه..

فليس كل يوم تأتي للمرء فرصة اغتيال وزيرين بضربة واحدة، أليس كذلك..؟

***

- خـــــ.. ماذا...؟

كان (شريف) على وشك الإصابة بالفالج..

حتّى هذه اللحظة لا يُدرك ما علاقة كل هذا بما يحدُث أو بطريقة إحضاره لهذا المكان وخصوصًا مع هدوء دكتور (أمجد) وبرود مُساعده، فدار على عقبيه بعصبية بالغة وهو يتّجه نحو الباب مُتجاهلًا نداء دكتور (أمجد) عليه قبل أن يُقاطع مسيرته رنين هاتفه الذي تفاجأ أنّه لم يكُن في جيبه، بل على طاولة صغيرة في طرف المعمل فالتفت بغضب إليهما، ثم اتّجه نحو الهاتف ليلتقطُه ويُجيب..

عقد دكتور (أمجد) كفيّه وراء ظهره وهو يُراقبه قائلًا:

- هل يُخبرك الآن عن تطوّرات حوادث الاختفاء...؟

لم يُجبه (شريف) في حين استطرد دكتور (أمجد):

- هذا هو زميلك (أحمد عبد العظيم)، أليس كذلك...؟

تجاهله (شريف) للمرة الثانية وهو يهتف في مُحدّثهُ في حدّة:

- هذا هُراء...! أُريدك أن تُعيد مُراجعة هذه البيانات مرّة أُخرى، وأعنيك أنت يا (أحمد)، فلا توكّل أحدًا ما مكانك..

قالها وأنهى المُكالمة بعصبية قبل أن يتّجه مرّة أُخرى نحو

الباب قبل أن يتجمّد في مكانه على صوت دكتور (أمجد) وهو يسأله في هدوء مُريب:

- هل أخبرك عن الطائرة...؟

ران الصمت للحظات قبل أن يسأله (شريف) في شكّ دون أن يلتفت إليه:

- كيف عرفت...؟!

- هلّا أخبرتني ماذا قال لك بالتحديد...؟ وأعدك أن أشرح لك كل شيء بالتفصيل المُمل..

كانت لهجتُه نوعًا ما مُطمئنة ولكنّها لم تفلح في إزالة أمارات الشك من على وجه (شريف) الذي التفت إليه وهو يتطلّع إليه بتمعّن وكأنّه يحاول أن يقرأ أفكاره..

أمّا دكتور (أمجد) فلم يُعر لشكّه اهتمامًا بل اتّجه نحو الطاولة الجانبية والتقط من عليها جريدة، فضّها لصفحتها الأولى ثم ناولها لـ (شريف) قائلًا:

- هلّا ألقيت نظرة هُنا...؟

أمسك (شريف) الصحيفة وهو لا يزال في مكانه وألقى نظرة على العنوان الرئيسي بغير اهتمام واضح، سُرعان ما انقلب إلى علامة تعجّب ظهرت على وجهه وهو يعقد

حاجبيه كعادته كلّما اختبر شيئًا لا يتماشى مع منطقه، وانتقل بنظره نحو التّاريخ الذي أشار إلى تاريخ اليوم، فقبضت أصابعه على الجريدة وهو يُشير بها نحو الدكتور (أمجد) مُتسائلًا:

- وما هذا بالضبّط...؟!

- ماذا تظُنّه...؟

- لا أدري ماذا أظنّه...! أنا لا أظُن شيئًا...! ما المُفترض أن أعرفه من جريدة تم التلاعُب بها لتنشُر خبرًا كهذا...؟!

ابتسم الدكتور (أمجد) ابتسامة باهتة وهو يهُز رأسه يمينًا ويسارًا قائلًا:

- هذه الجريدة أصلية يا سيد (شريف)، لم يتم التلاعُب بها..

كاد (شريف) أن ينفجر في وجهه، ولكنّه فضّل أن يسحب نفسًا عميقًا ليتمالك أعصابه وكتمه بداخله لثوانٍ، قبل أن يزفُرُه وهو يسأله في هدوء مُثير:

- حسنًا، حسنًا، طبقًا لكلامك، فقد تم اغتيال وزير الدفاع، ودون أن أعلم أنا ولا أي جهة سيادية أُخرى لتتخّذ إجراءاتها ودون أن تنقلب الدنيا على أعقابها، ومصدرك هو هذه

الجريدة، أليس كذلك...؟

أجابُه الدكتور (أمجد) بنفس الابتسامة الباهتة:

- ليس بالضبط، فالوزير لم يتم اغتياله بعد، أو بمعنى أصحّ، تم اغتياله نعم.. ولكنّ في زمن آخر..

قابلته نظرات الاستنكار في عيني (شريف) وقبل أن يعترض، بادره دكتور (أمجد) بإشارة من يده وهو يستطرد:

- والآن، كُف عن مُقاطعتي واترك لي فُرصة شرح كل شيء، فمهما كانت مصادرك فهناك جُزء من القصة لن تستطيع معرفته بدوني..

ثم تنحنح قليلًا وهو يحاول أن يجد النُقطة المُناسبة ليبدأ منها قصّته..

قبل أن يستعيد زمام الكلام..

ويُتابع قصّته..

***

- الآن يا (مُخلص)..

ما أن أتاه الأمر حتّى ضغط (مُخلص) بيُمناه عدّة أزرار في اللوحة الإلكترونية أمامه بتتابُع مُعيّن، وعدّل عدّة

مؤشرات بيُسراه لتتحرّك عدّة كلمات على شاشة بلورية صغيرة بجانب المرآة الضخمة وتستقر على كلمة (القاهرة) في الوقت الذي تحرّك فيها عدّاد التاريخ ليستقر على تاريخ سابق لذلك اليوم بعدة أيام..

ما أن توقّف العدّاد تمامًا حتّى سحب (مُخلص) ذراعًا صغيرة بجانبه وتراجع للخلف عدّة خطوات ليقف بجانب دكتور (أمجد) الذي تعلّقت عيناه بالمرآة في لهفة..

استمر الصمت لثوانٍ وكلاهما يتطلّع إلى المرآة..

لم يبدُ أي تغيير للوهلة الأولى ولكن ما أن همّ (مُخلص) بقول شيء ما حتّى منعه وميض أبيض ساطع انبعث من سطح المرآة أغشى عينيهما فأغلقاهما بقوة في نفس الوقت الذي ارتفع فيه صوت شرارات كهربائية وسط تفريغ هواء اقشعرت له شُعيرات سواعدهُما، وسط صرخة انتصار صدرت من فم دكتور (أمجد)..

استمر الوضع لثوانٍ قبل أن ينسحب الوميض داخل المرآة مرّة أخرى وتهدأ الأصوات ويفتح كل منهما عينيه على شرارات زرقاء باهتة تتراقص على سطح المرآة في كل مكان، الذي تحول من صورته العاكسة لما يُشبه سطح بُحيرة غير واضحة المعالم تتراقص فيها خيالات قاتمة أمام ناظريهما وكأنّها أطياف أشباح.

التفت دكتور (أمجد) نحو شاشة المؤشّر ليتأكّد من التاريخ قبل أن يعود بنظره مرّة أُخرى نحو المرآة التي استقر سطحها وبدأت الخيالات تتضّح أكثر..

وهنا سأل (مُخلص) في ترقّب:

- والآن ماذا...؟

- الآن يتبقّى أن نعرف أين ننظُر..

***

- إذًا فالمفروض أن هذه المرآة ليست مُجرّد مرآة عادية..

غمغم (شريف) في غير تصديق وهو يتطلّع إلى المرآة التي قد صار لها بُعدًا نفسيًا..

فارتسمت نفس الابتسامة الباهتة على وجه دكتور (أمجد) وهو يُجيبه في أسى واضح:

- هذه (المرآة) يا سيد (شريف) هي الوسيلة الوحيدة في العالم كلّه التي تُتيح لك أن تنظر عبر الزمن، أن ترى ما قد حدث وانتهى..

لم يبدُ على (شريف) أنّه سمعُه في البداية، بل استمر الصمت لوهلة قبل أن يتحرّك من مكانه فجأة، ويتّجه صوب

المرآة ويمُر بأنامله على إطارها وهو يُكرّر في خفوت:

- إذًا فهذه التُحفة الأثرية هي نافذة للماضي..

ثم استدار موجّهًا حديثه إلى دكتور (أمجد) بلهجة ظهرت فيها لمحة من السُخرية المكتومة:

- وهل هناك شرح مُبسّط لغير العُلماء...؟

تجاهل دكتور (أمجد) السُخرية في لهجة (شريف) وهو يُغمغم:

- نعم يا سيد (شريف)، هناك بالتأكيد نُسخة مُبسّطة..

قالها وهو يلتقط ورقة بيضاء من الطابعة القريبة منه ويرفعها أمام ناظري (شريف) بطريقة أُفقية مُستطردًا:

- اعتدنا دومًا – نحنُ العُلماء – أن ننظر إلى الزمن نظرتنا لهذه الورقة، خط مُستقيم مُسطّح ومُمتد، وإذا كُنت تتذكّر ما درسناه في الإعدادية عن تركيب العين البشرية فستتذكّر أنّنا لكي نرى جسمًا ما يلزم للضوء المُنعكس عنه أن يقطع المسافة منه إلينا ليقع على شبكية أعيُننا فينتقل عبر العصب البصري للمُخّ الذي يُترجم هذه الإشارات إلى صور فنرى ذلك الجسم على هيئته.

كان يتكلّم وهو يُشير بيده إلى خط مستقيم يبدأ بنقطة

وينتهي بنُقطة كان قد رسمه ليقطع مُنتصف الورقة بالطول و(شريف) يُتابعه في ترقُّب:

- وهنا يظهر مفهوم مرور الوقت، لهذا دومًا نتقدّم إلى الأمام في الزمن، مُنتظرين الضوء – بالرغم من سُرعته المهولة – ليصل إلينا، ولكن..

وهُنا طوى طرفيّ الورقة ليلتصقا ببعضهما، وتتطابق النقطتان فوق بعضهما وتصيرا نُقطة واحدة، ثم ثقب الورقة عندها بالضبط من المنتصف بقلم كان يحمله في جيبه وتابع:

- ماذا لو وجدنا طريقة ما لنُقرّب المصدر إلينا بدلًا من انتظار الضوء الصادر منه...؟

ورفع الثُقب في منتصف الورقة المطوية أمام عيني (شريف) قائلًا:

- هنا فقط يمكن لنا أن نختصر المسافة ونحضر المصدر بنفسه إلينا عوضًا عن انتظاره، أو نذهب نحن إليه.

- وكيف فعلتُم هذا...؟

أزاح دكتور (أمجد) الورقة ووضعها على الطاولة وهو يُشير لـ (شريف) مُجيبًا سؤاله:

- إجابة هذا السؤال تتضمّن عقود من العمل المتواصل

وعدّة شهادات علمية في أكثر من مجال من فيزياء نظرية وهندسة وميكانيكا الكمّ سأعفيك عنها، ولكن يمكن اختصارها في أنّنا استطعنا طيّ نسيج الزمكان نفسه ومنها استطـــ...

أوقفته نظرة حيرى من عين (شريف)، فتنحنح ثم فسّر أكثر:

- الزمكان يا سيد (شريف) هو مُصطلح حديث نسبيًا يجمع بين المكان بأبعاده الثلاثة المعروفة لنا من طول وعرض وارتفاع مع البعد الرابع ألا وهو الزمن، أي أن وجود أي جسم في الكون المعلوم لنا يجعل له أربعة أبعاد وليس ثلاثة كما كان المعروف قديمًا.. فوجودك أمامي هُنا يجعل لك طول وعرض وارتفاع وذلك لأنك جسم ثلاثي الأبعاد تعترض الضوء فتُلقي ظلًا على الأرض ولكن إن شئنا الدقّة العلمية بالمفاهيم الحديثة فأنت جسم رباعي الأبعاد حيثُ أنّك موجود (الآن) أيضًا، وهذا هو البُعد الرابع.. الزمن..

لوّح بيده وهو يستطرد:

- بغض النظر عن الكلام الأكاديمي، المُهم أنّنا توصّلنا للطريقة التي تمكنّنا بها من التطفّل على الزمان والمكان في نفس الوقت.. وعليها انتقلنا بمنظورنا إلى بُعد أعلى من الأبعاد الأربعة الرئيسية المعروفة لنا الآن من طول وعرض

وارتفاع وزمن، إلى الولوج للبُعد الخامس ويكفي أن أقول أن ذلك أعطانا الفرصة للنظر إلى البُعد الرابع الأقل منه..أي أننا استطعنا أن نتحكّم في الزمن نفسه..

فتح (شريف) فمه ليعترض ولكن عاجله دكتور (أمجد) بإشارة من كفّه وهو يقول:

- أعلم، أعلم، الموضوع يبدو مُعقدًا جدًا ولكنني أُدرك أن عقليتك ستستوعبُه، وصدقني الأمر أسهل كوني أنا من يشرح لك هذا الأمر هنا باستفاضة، فلو كنت تقرأ هذا في كتابٍ ما لكُنتَ اضطررت أن تُعيد قراءة الفقرة مرة تلو الأُخرى وتُحاول أن تتخيّل ولكنني أعفيك من هذا كلّه، فأعرني انتباهك..

ثُم تابع وهو يسحب ورقة أُخرى من الطابعة، يضعها على الطاولة ويرسم عليها رجل العُصيّ داخل مُربع ناقص ضلع:

- الآن، أطلق العنان لخيالك وانظر لهذا الرجل داخل منزلُه، في حالتُه هذه، هذا الرجُل له بُعدين فقط، طول وعرض، أي ليس له ارتفاع، إذا ما مررت بيدي من فوقه لن يُمكنه النظر إليها، بالنسبة لهُ العالم عبارة عن أمام وخلف ويمين ويسار فقط لأنُه في عالم ذي بُعدين، أي أن مفهوميّ (فوق) و(تحت) لا وجود لهما في قاموسه وحتّى لو وصفتهما له لن يستوعبهما، ولكن أنا ثلاثي الأبعاد، ولذلك أستطيع أن أراه

من البُعد الثالث ألا وهو (الارتفاع) أي أنّني (فوق)، فبالنسبة له أنا في مكان لا يستطيع أن يُدركني فيه لأني خارج عن مفاهيمه، وكذلك يدي..

قالها وهو يُلوّح بيده فوق الرسمة مُتابعًا:

- يدي ثُلاثية الأبعاد نعم ولكن عندما أُمرّرها من فوقه، فهي تُلقي ظلًا عليه فقط، هذا الظل هو الصورة ثُنائية الأبعاد ليدي ثُلاثية الأبعاد.. ففي هذه الحالة يستطيع هذا الرجُل أن يرى ظل يدي فقط دون يدي نفسها لأنّ هذا الظل قد أصبح جُزءًا من عالمه، أي أن الظل أصبح له بُعدين فقط طول وعرض مثل الرجُل نفسه..

صمت للحظة وهو ينظُر إلى (شريف) في تساؤل، في الوقت الذي أومأ إليه الأخير وهو يُتمتم برنّة انبهار في صوتِه:

- أعتقد – ولمُفاجئتي أنا شخصيًا - أنني فهمت الآن الفكرة العامة نعم..

ظهرت الحماسة في صوت دكتور (أمجد) وهو يُتابع كأنّه في مُحاضرة ملوحًا بكفيّه:

- عظيم جدًا، لم أفقد بعد مهاراتي التدريسية، وشكرًا لـ (كارل ساجان).. المُهم، بنفس المفهوم الذي شرحته لك ولكن

على نطاق أوسع بالطبع، كانت الطفرة العلمية التي وصلنا إليها، فتخيّل أن هذا الرجُل ثُنائي الأبعاد استطاع أن يكتسب بُعد (الارتفاع) لأبعاده ويرتقي مكان يدي، لاستطاع أن يرى منزله من الأعلى عبارة عن مربّع مرسوم على ورقة مُسطّحة ولاستطاع أن يُدرك أن هذا الظل ما هو إلا إسقاط لجسم مُجسّم ألا وهو يدي.. تخيّل ردّة فعلُه...؟! قُنبلة من الذهول والانبهار...!

علا صوتُه على غير قصدٍ منه وهو يهتف ملوّحا بيده في كُل مكان:

- هذا ما استطعنا تطبيقُه بالضبط.. فبعد أن كُنا مكان هذا الرجُل المرسوم محبوسين في أبعادنا الأربعة، نرى فقط الظل استطعنا أن نرتقي لبُعد أعلى، أن نعلو حتّى البُعد الخامس، وعليها استطعنا أن نُلقي نظرة على البُعد الأقل وهو – في حالتنا هذه – الزمن.. أي أن الزمن أصبح لنا كتلك الورقة المُسطّحة نستطيع أن ننظُر على أي نُقطة فيها كما نشاء بعد أن كُنا محبوسين فيها في منزل مرسوم بالحبر..

توّقف لثانية ليلتقط أنفاسه ثُم تابع:

- كانت المُعضلة الرئيسية – بجانب الجُزء النظري بالطبع – هو مقدار الطاقة الكافية للقيام بذلك، ولكن (مع التطور التكنولوچي) في السنين الماضية استطعنا توليد الطاقة

اللازمة وتخطّينا بعض العقبات الأساسية وهنا فقط وبين جُدران هذا المعمل استطعنا أن نصل لقمّة العلم.. هُنا فقط استطعنا تكوين (جسر آينشتاين – روزين).. أو كما يُطلق عليه العامّة.. الثُقب الدودي..

استدار عندها نحو لوحة بيضاء مُعلّقة بجانبُه، مسح ما عليها ثُم رسم خطيّن متوازيين أُفقيًا يبدآن وينتهيان بشكل بيضاوي يتعامد عليهما، وظلّل أحدهما ليبدو مُختلفًا عن الآخر ثم أشار إليه وهو يستطرد:

- أنت بالطبع تعرف الثُقب الأسود، مساحة من الفضاء ذات كثافة مهولة وجاذبية رهيبة تسحب إليها أي شيء حتّى الضوء، ومنها جاء الاسم، والنظريات العلمية تُرجّح أن الطرف المُقابل لهُ هو النقيض منه تمامًا، فنجِدَه عبارة عن ثُقب أبيض يطرُد كل ما التقمه الثُقب الأسود بما فيه الضوء ولذلك يشعّ بمقدار كُل الضوء الذي يمتّصُه..

وهُنا ظلّل الخطّين المتوازيين بين الثُقبين بتظليل مُختلف عن الشكل البيضاوي وهو يُتابع:

- والمسافة هذه بين الثُقبين هي ما يُطلق عليها علميًا (جسر آينشتاين – روزين) نسبةً للعالِمين الشهيرين، وهذا الجسر الافتراضي يُرجّح بعض العُلماء أنه السبيل المستقبلي للرحلات الفضائية والسفر عبر النجوم في كونه يختصر

الزمن والمسافة، أي أنّك تدخُل من النُقطة (أ) في قلب الثُقب الأسود هُنا في الثانية الأولى لتنتهي في الثانية الثانية في النُقطة (ب) خارج الثُقب الأبيض على بُعد آلاف السنين الضوئية..

وأشار إلى الورقة المثقوبة المُلقاة جانبًا قائلًا:

- أي أنّك تختصر المسافة فتذهب بنفسك للمصدر، كما شرحت مُسبقًا.

ابتلع ريقه ثم تابع وقد التمعت عيناه:

- حُلم العلماء من بداية اكتشاف علوم الفضاء هو معرفة حقيقة هذا الكيان المجهول، وهذا الحُلم تمت ولادته على يدي ها هُنا.. المُتعارف عليه أن هذه الثقوب – إن وجدت – ستكون مُتناهية الصغر وعلى المُستوي الذرّي فقط ولكنني استطعت – وبمُساعدة (مُخلص) – أن أتوصّل لطريقة لتصحيح هذا المفهوم، بل ووصلت لأن تمكنت من تطويع الأمر والتحكّم فيه ليظهر إلى الوجود ما تراهُ أمامك هُنا..

واكتسب صوته رنّة فخر وهو يفسّر مُشيرًا إلى المرآة:

- (خرونوس).. أول نافذة عبر نسيج الزمكان في تاريخ العلم القديم والحديث، تُتيح للرائي أن يختصر الزمان والمكان ويُلقي نظرة على ما حدث في الماضي..

و(خرونوس) – إن كُنت لا تعرف - هو تشخيص الزمن في الميثولوجيا الإغريقية، رأيت أنّه التسمية المثالية، لا أدري رُبّما أُغيّره عند تسجيله رسميًا، لم أستقر بعد..

بدأ يلهث من فرط الحماس وهو يُتابع:

- المُهم، مُتخيّل الطفرة العلمية التي توّصلنا إليها يا سيد (شريف)...؟ مُتخيّل خطورة اكتشاف كهذا...؟! نافذة تُطِل على الماضي تُمكّنك من معرفة أحداث سبقت عصرك بعشرات ومئات السنين..؟! لن تخفى علينا أي خطط ولن ينفد أي مُجرم بجريمته.. ستنكشف لنا كل الأسرار وستـ...

- مهلًا يا دكتور.. مهلًا..

قاطعه (شريف) هذه المرّة بإشارة من يده وهو يُحاول أن يستوعب هذا الكمّ من المعلومات التي انهالت عليه، قبل أن يسأل في نفاذ صبر:

- كل هذا جميل ورائع ومُفيد للبشرية ويصلُح كمادة علمية لبرنامج ما على ناشيونال جيوجرافيك، ولكنّه لا يفسّر أيّ ممّا مررتُ به اليومين الماضيين ولا يُفسّر الحوادث الغريبة ولا حتّى يُفسّر تلك الجريدة التّي تدّعي أنّها أصلية..

انطفأ صوت دكتور (أمجد) واختفت رنّة الحماس والفخر وحلّ محلّهما الأسى جليًا فيه وهو يُجيب بانكسار:

- الصبر يا بُنّي، هي مُقدّمة لابُد منها.. فنحن السبب في كل هذا..

ارتجّ (شريف) من قوله وحاول أن يربُط بين الأحداث السابقة وكلامه في محاولة لفهم ما يقصد ولكنّه فشل، فسأله في توتر:

- ماذا تقصد...؟ ومن (نحن)...؟

- نحنُ يا ولدي، أنا و(مُخلص)، سأُخبرك..

ثم أتبع قوله باتجاهه نحو مُخطّط الطائرة الذي كان قد أسدل عليه ستارًا، فأزاحه أمام عيني (شريف) المُندهشتين لدى رؤيته لاسم (القناوي) و(عبد الجليل) و(سامح) مع أسماء أُخرى لا يعرفها، فعاد حاجباه يلتقيان في شدّة في الوقت الذي أشار فيه دكتور (أمجد) إلى المُخطّط قائلًا بنفس اللجهة الحزينة:

- هذا ما كان يُخبرك به زميلك، أليس كذلك...؟

لم يرُد (شريف) على الفور وهو يُحدّق في المُخطّط ويسترجع كلام (أحمد) وهو يُخبره أنّه وجد خيطًا يجمع بين الأشخاص الذين اختفوا في غموض..

أن جميعهُم كانوا رُكّاب رحلة واحدة تابعة لمصر للطيران..

وكان من المُمكن أن تكون هذه بداية حل اللُغز بالفعل..

لولا أن (أحمد) أخبره بباقي المعلومة..

أن هذه الطائرة سقطت بجميع رُكّابها في ٢٠٠٨ نتيجة عُطل في مُحرّكها...!

أي أن جميع من اختفوا، هم في الأصل ضحايا حادث طائرة من قبلها بسنوات...!

لذلك انفجر (شريف) فيه ظنًا منه أنّه لم يتحرّ الدقّة في البحث، ولكن ها هو ذلك العالِم يؤكّد نفس المعلومة ومن الواضح أنه توصّل إليها قبله..

بل ومن الواضح أنّه يعرف أكثر كما أخبره في بداية كلامه، فالمُخطّط يحمل أسماء أشخاص آخرين لا يدري عنهم شيئًا..

كانت ملامح (شريف) تُعبّر عمّا يدور بداخله، ويطفو في عينيه سيل من الأسئلة التي يحتاج إجاباتها، فنقل بصره بين الأسماء وبين (مُخلص) الذي يلتزم الصمت من البداية والدكتور (أمجد) الذي كان قد احترم صمت (شريف) وتفكيره، قبل أن يُشير نحو الجريدة إياها ويُتابع:

- كانت البداية مع هذا الخبر..

تحرّك من مكانه مُتّجهًا نحو شاشة كبيرة وأخذ يعبث

بلوحة مفاتيح أسفلها وهو يحكي:

- هذا الخبر كان حقيقيًا وصحيحًا يا سيد (شريف)، ولكنّه لم يعد كذلك، على الأقل ليس في هذا المُنحنى الزمني، فقد تم استهداف موكب وزير الدفاع أثناء زيارة وزير دفاع دولة ما صديقة نتيجة هجمة إرهابية لم تتمكّن السُلطات من استباقها، ولم يكُن لديها أي خيط تتبّعُه ووقع حمل معرفة الجاني على عاتق هذا المعمل..

ثم استدار مواجهًا إياه مُعقّبًا:

- وكان هذا هو سبب لقائي بالقائد العام نظرًا لمعرفته بطبيعة التجارب التي نقوم بها هنا، وإن لم يكُن مُلمًّا بالتفاصيل، وبالفعل أخذنا على عاتقنا أنا و(مُخلص) مُهمّة اكتشاف مُلابسات حادث التفجير عن طريق (خرونوس).. حتّى حدث ما حدث..

قالها ودار على عقبيه وضغط على زر ما في اللوحة لتشتعل الشاشة وتعرض فيلم لإحدى كاميرات المراقبة الموجودة في رُكن من أركان المعمل، ويبدو فيه دكتور (أمجد) وهو يحتوي كوبًا ما في يده ويقف إلى جانبه (مُخلص) الذي كان يعبث في توصيلات وأسلاك تتّصل بالمرآة، واستمر على هذا المنوال لثوانٍ، قبل أن يتراجع كلاهما للوراء وتبدأ المرآة في عملها ويصُدر منها ضوء ساطع

لثوانٍ قبل أن تستقر ويهدأ سطحها..

لم يبدُ ما على سطحها واضحًا من الزاوية التي تلتقط منها الكاميرا تسجيلها وإن بدا أن كلاهما يتطلّع باهتمام لشيءٍ ما يدور فيها..

مرّت ثوانٍ قبل أن يُشير (مُخلص) بيدِه نحو شيء لم يره دكتور (أمجد) جيدًا، فاقترب من المرآة ليُلقي نظرة أوضح، ولكن في أثناء حركته بغير تركيز اشتبكت قدمه في أحد الأسلاك فمال الكوب من يده نحو لوحة المفاتيح التي أصدرت شرارات عالية وتطايرت منها شذرات ماس كهربي، ما لبث أن ارتفع فجأة للأعلى من بين الأزرار وبدأت الأرقام تجري في جنون على الشاشة في الوقت الذي صرخ فيه (مُخلص) وهو يُحاول أن يوقف ما يحدُث ويُمسك يد دكتور (أمجد) في نفس الوقت، فاصطدم ذراعُه بشيءٍ ما على رف أعلى اللوحة فطار نحو المرآة..

وهُنا كانت المُفاجأة...!

بدلًا من أن يصطدم بها هذا الشيء ويسقُط أرضًا، اندفع عبرها..

اخترقها في وميض مُفاجئ أعقبه ضوء ساطع صدر من المرآة..

ضوء غمر الكاميرا بالأعلى..

قبل أن ينقطع التسجيل..

***

ران الصمت للحظات و(شريف) يُحدّق في الشاشة ودكتور (أمجد) يُراقبُه، مُنتظرًا رد فعله قبل أن يأتيه الجواب على هيئة سؤال:

- أين موقع هذا الفيديو من الأحداث...؟

أشار إليه دكتور (أمجد) بأصبعه مؤيدّا وهو يقول:

- هذا هو السؤال الصحيح يا سيد (شريف)، ها قد بدأت تفهم قواعد اللُعبة.. الخُدعة كلّها في الوقت..

قالها وهو يعبث في أحد الأدراج قبل أن يلتقط صورة ضوئية للمرآة بتاريخ يعود لعدّة أسابيع، ويُديرُها نحو وجه (شريف) وهو يُتابع:

- ما حدث في هذا الفيديو كان عقب حادث الاغتيال مُباشرة ونحنُ نحاول أن نصل إلى ما قبل لحظة التفجير، وذلك قبل أن يتسبّب النيسكافيه في حدوث ماس كهربائي دفع مؤشر التاريخ للعودة للوراء ويتغيّر المكان.. فبدلًا من تاريخ التفجير هُنا في القاهرة، اندفع المؤشّر إلى الإسكندرية إلى سبعينات القرن الماضي..

كان (شريف) يُنصت له وهو يُحاول أن يستنبط الغريب في الصورة، قبل أن ينتبه إليه..

على رف أعلى لوحة المفاتيح استقر الشيء الذي خمّن (شريف) أنّه ما سقط عبر المرآة..

كان هذا الشيء هو لُعبة صغيرة..

مُجسّم لطائرة تحمل كلمة A٣٣٠ على جانبها..

***

كانت الشرارات ما تزال تنبعث من كل مكان حول ذلك الشيء الذي بدأت تبدو معالمه كلما اقترب منه (رضا) ليبدو وكأنه.. إنها طائرة...!

ذلك الشيء هو طائرة لُعبة...!

ووهووو، تُرى هل سمعت أمّه تضرعه فأرسلت له لُعبة من الجنّة...؟

تسارعت ضربات قلبه في إثارة..

كانت الشرارات الزرقاء الجميلة قد توقفت والطائرة تبدو مُغرية وهي مُلقاة على جانبها، كانت تُشبه الطائرات التي تخلب لبه في السماء كلما رآها، بيضاء اللون ذات علامة زرقاء على الجانب، وعليها كلمات مطبوعة لا يفهمها (رضا)..

فقط استطاع أن يتعرّف على حرف الـ A مثل Apple يعني تُفّاحة والأرقام ٣ و٣ وصفر..

مثل تلك الأرقام في كرّاسه..

A٣٣٠?

لا يعرف ماذا يعني هذا ولكنه لا يهتم.. الآن صار لديه لُعبة خاصة به، لُعبة لا يملُكها أي من هولاء الأطفال المُدلّلين...!

***

- هذه اللُعبة الصغيرة هي سبب كل هذه الحوادث..

قالها دكتور (أمجد) في حسرة وهو يهُز رأسه يمينًا ويسارًا قبل أن يسأله (شريف) في عدم فهم:

- ماذا تعني أنها السبب؟!

التقط دكتور (أمجد) القلم مرّة أُخرة واتّجه نحو اللوحة ومسح الرسمة التي استخدمها لشرح فكرة الثُقب الدودي ورسم مكانها خطًا مُستقيمًا ينتهي برأس سهم كتب فوقه (الزمن ١) وهو يُخاطب (شريف):

- تخيّل الزمن مثل هذا الخط المستقيم، له بداية في نقطة ما غير معلومة لنا وإن كُنا نُقدّرها بُعمر الكون من حوالي ١٣.٨ مليار سنة، وينتهي في نقطة أخرى غير معلومة لنا ستأتي بنهاية الكون، ودومًا ما يسير هذا الزمن في خط واحد.. إلى الأمام فقط..

ثم رسم نُقطة قُرب مُنتصف الخط وكتب فوقها (الآن) وقال:

- نحنُ هُنا، أنا وأنت و(مُخلص) وجميع ما يحدُث الآن في الوقت الحاضر، ما قبلها هو الماضي وما بعدها هو المُستقبل، وبمُساعدة (خرونوس) هُنا حانت لنا الفُرصة أن نُلقي نظرة إلى الوراء، نظرة على الماضي كما شرحتُ لك مُسبقًا.

قالها ورسم خطًا مُنحنيًا يبدأ من كلمة (الآن) لمُنتصف المسافة بينها وبين نُقطة البداية والتي تُمثّل الماضي ورسم فوقه عين وهو يُكمل ناظرًا لـ (شريف):

- هذه الفُرصة أُتيحت لنا للمُراقبة فقط، دون محاولة التدخّل في شيء، لأنّه – وكما تعرف يا سيد (شريف) – أن هذا العِلْم لا يزال علمًا وليدًا فلا ندري المخاطر التي قد تنجُم عن مثل هذا التهوّر ناهيك عن انهيار خط الزمن بما فيه.. وللأسف هذا التهور هو ما حدث بالضبط..

استدار نحو اللوحة مرّة أُخرى وهو يمسح العين ويرسم مكانها رسمة سريعة لطائرة صغيرة، ومن نُقطة التقاء الخط المنحني بالخط المستقيم الأصلي خرج بخط صغير عمودي على الخط المُستقيم ومن نهاية هذا الخط القصير رسم خطًا مُستقيمًا آخر يسير موازيًا للخط الأصلي كتب فوقه (الزمن

٢) لتُصبح الرسمة على شكل حرف U حاد الأركان..

خطّان متوازيان أحدُهما مكتوب فوقه (الزمن ١) والثاني مكتوب فوقه (الزمن ٢)، يبدأ الأخير من خط عمودي على الأول في نُقطة مرسوم فوقها لُعبة الطائرة الصغيرة..

انتهى ووضع القلم مكانه وهو يستدير إلى (شريف) مُتابعًا:

- نتيجة لهذا الحادث المؤسف، وبطريقة غير معلومة لنا بعد - ولم نكُن نعلم بإمكانية حدوثها من الأصل - عادت تلك اللُعبة للماضي وظهر تأثير الفراشة جليًّا في شكل سلسلة من الأحداث التراكُمية.. وعليها نشأ خط زمني آخر، في هذه الحالة هو خط (الزمن ٢)، بدأ من لحظة وصول اللُعبة لوجهتها، وهذا الخط الزمني الجديد يسيرُ موازيًا للخط الزمني الأصلي، يُشبهُه نعم ولكنُه لا يتطابق معُه، وهذا هو الخط الزمني الذي نحنُ فيه الآن، أي أنّ لولا سقوط اللُعبة عبر (خرونوس) لم يكُن لينشأ هذا الخط الزمني الجديد ولم تكُن لتحدُث هذه الاختفاءات ولم تكُن أنت لتعرف بوجودنا من الأساس ولم نكُن لنلتقي أبدًا..

كان (شريف) يستمع دون أن يُقاطعه، وهُناك صراع عنيف يدور بداخله ما بين الرغبة في التصديق وصعوبة الاقتناع بكل هذا الحشو العلمي الذي لا يزال لا يفسّر ما حدث، فنقل أفكاره على هيئة سؤال عصبي:

- إذًا فنحنُ الآن لسنا كما كُنا قبل سقوط اللُعبة، هُناك شيء ما اختلف سبّب هذا التفرّع، هل هذا صحيح؟

أومأ دكتور (أمجد) برأسه مؤكدًا على كلامه وهو يُشير على مُخطّط الطائرة وتحديدًا على مُربّع الطيّار الذي حمل اسم (رضا سعد البِشري) قائلًا:

- توصلنا بعد عناء شديد وبإجراء مُعادلات حسابية شديدة التعقيد سأعفيك من الدخول في تفاصيلها إلى أن الطائرة الصغيرة وقعت في يد (رضا سعد) في الفترة من ١٩٧٤ إلى ١٩٧٨ ولا ندري بالتحديد ما كان وقعها عليه ولكنّي أكادُ أجزم أنّها غيّرت حياته ليشُب مهووسًا بالطائرات والطيران عمومًا ليُصبح هو قائد الطائرة المنكوبة التي سقطت براكبيها، أي بالأشخاص المُختفين في ٢٠٠٨..

- أممم، إذًا فكل من يختفي الآن المفروض أنّه مات في حادث الطائرة في ٢٠٠٨...؟

جاوبته إيماءة أُخرى من دكتور (أمجد) دون أن ينبس ببنت شفة، فتجرأ (شريف) وسأله بنفس العصبية:

- ولم بدأوا في الاختفاء الآن؟ أليس الحادث من ٢٠٠٨؟

ابتسم دكتور (أمجد) ابتسامة مُشفقة، كان يعلم أن الأمر

أكثر تعقيدًا مما يبدو عليه، فسحب نفسًا عميقًا وجاوب بطريقة حاول أن يجعلها مُبسّطة قدر الإمكان:

- هذا صحيح، الحادث في ٢٠٠٨ يا سيد (شريف)، في هذا الخط الزمني الجديد.. ولكن اللُعبة انتقلت للماضي من عدّة أيام، أي في الخط الزمني الأصلي قبل حدوث التفرّع، فبالتالي بدأ خط الزمن الجديد يُصحّح أخطاءنا الآن بمحو مَن لم يعُد له وجود، وبالتالي يختفي كل مَن كان على متن الطائرة..

رفع كفيّه المفرودين أمام وجهه وهو يهتف:

- مهلًا، مهلًا، لتسهيل الأمر عليك، سقطت الطائرة عبر الزمن للماضي فوجدها (رضا) فأصبح طيّارًا فسقط بالطائرة في ٢٠٠٨ وقضى رُكابّها نحبهم ولكن بما أن الطائرة الصغيرة لم يفُت على رجوعها في الزمن سوى أيام قليلة ففي هذه الأيام حدثت الاختفاءات ومازالت تحدُث وستظل تحدُث، لأن هذه هي وسيلة خط الزمن في إصلاح أخطائنا والعودة للاتّزان الطبيعي له، هذا هو عقابُه لنا على العبث بِه..

وأشار بأصبعه مُكملًا:

- وبالمُناسبة مع الوقت وحتى ينتهي تأثير الفراشة، ستختفي ذكراهم من عقول من خالطوهم، مع الوقت لن

يتذكّر أحد مَن كان فُلان، بل رُبّما هذا قد حدث بالفعل ونحنُ نتحدّث الآن، كلّ شيء مُمكن في لُعبة الزمن يا سيد (شريف).

- إذا كان هذا صحيحًا فلم لا تنسى أنت ولا مُساعدك؟! أعني لمَ تعرف أنت كل هذه التفاصيل وتتذكّرها وتُخبرني عنها..

خرجت نبرة (شريف) حادّة وهو يتساءل، كان يُفكّر لنفسه أن الأمر يزداد سوءًا وتعقيدًا كلّما فتح ذلك الرجُل فمه:

- كُنت أنتظر هذا السؤال، وإجابتُه تتلخّص في هذا..

قالها وهو يُشير بيديه حوله:

- سبب احتفاظنا أنا و(مُخلص) بذاكرتنا يرجع لطبيعة هذا المعمل الذي نُجري فيه التجارب هنا، كما قُلت في البداية أن هذه التجارب تستنزف طاقة هائلة ولذلك تم بناء هذا المعمل بمواصفات خاصّة وبتبطين من مادة الرُصاص مع سبيكة من بعض العناصر الأُخرى مما جعلني أنا و(مُخلص) فيما يُمكنك أن تُطلق عليه (منطقة عمياء) فلم نتأثر بتعكير مجرى الزمن ولم تتأثر ذاكرتنا بل ونحتفظ بذكريات الخط الزمني القديم أيضًا.

ثم اكتسب صوته رنّة من الأسى وهو يقول:

- وصدّقني هذا ليس بالأمر اللطيف ولا السهل علينا، أن نرى ما يحدُث حولنا للناس بسببنا ونحن نُدرك أننا الوحيدان اللذان نعرف ما حدث ولا نستطيع أن نُخبر أحدًا ولا نتوقع أن يُصدقنَا أحد إذا أخبرناه..

اعتصره الحُزن وهو يستطرد:

- في هذا الزمن الجديد، زوجتي ماتت بالسرطان من سبع سنوات يا سيد (شريف)، أرسلتُ (مُخلص) ليطمئن عليها فوَجد منزلي مُغلق منذ سنوات وأخبره الجيران أنّي أصبحتُ مُقيمًا في معملي بصفة دائمة بعد وفاة زوجتي المؤسفة..

لا يدري (شريف) لمَ تَذَكّر إطار الصورة الفارغ على الكومود بجانب سريره ولكن قبل أن يسرح في أفكاره قاطعه دكتور (أمجد) وهو يُشير بيده نحو الشاشة التي عرض عليها الفيلم من كاميرا المُراقبة وهو يتابع:

- هل تتذكّر تلك اللقطة في نهاية الفيلم عندما اندفع الضوء الساطع من المرآة نحو الكاميرا؟ كانت تلك هي اللحظة التي وُلِد فيها الخط الزمني الحالي، وصاحَبَها انطلاق دفقة من الطاقة الهائلة التي تُغذّي (خرونوس) إلى شبكة الأسلاك الرئيسية فتسبّبت في انقطاع التيار الكهربائي عن منطقة القاهرة الكبرى كلّها وأدخَلَت كلّ من في نطاقها في حالة من

الجمود المؤقّت، وعدّلت في ذكرياتهم القديمة وخلقت لديهم ذكريات جديدة.

هُنا، وهُنا فقط بدأت بعض الأمور تتضّح لـ (شريف) وتبدو منطقية..

«شعوره بالغثيان الغريب الذي صاحبه لدى استيقاظه من نوم لا يتذكّر متى نامه..»

«التشويش وفقدان الذاكرة المؤقّت الذي شعر بِه ما بين استيقاظه ودخوله الشُرفة..»

«التصرّف الغريب للمارّة والحيوانات في الشارع..»

«قُبّة الضوء في السماء..»

«إغماء (أحمد) المُفاجئ..»

وأخيرًا (مُخلص) الذي تقول السجلّات أنّه متوفّى من ١٠ سنوات!

إذًا فـ (مُخلص) في هذا الخط الزمني غير موجود أصلًا!

قطع دكتور (أمجد) حبل أفكاره قائلًا:

- والآن يا سيد (شريف)، بعد أن فهمت ما نحنُ بصدده، فكما لاحظت اليوم هو (المفروض) يوم التفجير وبالفعل

هُناك موكب الوزير في خلال ساعات، ولا ندري هل سيتكرّر الأمر في هذا الخط الزمني أيضًا أم سيكون الموضوع مُختلفًا تمامًا، نحنُ لا ندري أي شيء، لا يُمكن التنبؤ بتلاعب الزمن.. فقط نوّد أن تساعدنا في إصلاح ما أفسدناه..

نظر إليه (شريف) في استنكار لثوانٍ قبل أن يهتف في انفعال:

- إصلاح؟! وكيف يُمكن لأي أحد إصلاح ما حدث؟! أنا بالكاد أستطيع أن أفهم الفكرة العامة لما حدث، فكيف – في رأيك – يُمكنني أن أُشارك بأي شيء؟! أي شيء!

ثم لوّح بيده وهو يتحرّك في المكان بعصبية مُكملًا:

- ثم إن كل ما قلته – بغض النظر عن تصديقي، فهمي أو اقتناعي به من عدمه – لا يُفسّر حادث المستشفى ولا بعض تفاصيله التّي لن أستطيع الإفصاح عنها، أم أن حادث المستشفى ليس له علاقة بكل هذا الهُراء عن الخطوط الزمنية والماضي ولا أدري ماذا؟؟

كان جسدُه يرتعش من فرط العصبية والتوتر، فأخرج سيجارة ودسّها في فمه دون أن يُشعلها، فبادرهُ (مُخلص) بصوت من شفتيه أن التدخين غير مسموح بِه في المعمل فرفع (شريف) نظره إليه وهو يقول في حنق:

- أعرف أيها العبقري، أنا فقط بحاجة إلى طعم النيكوتين في فمي!

هزّ (مُخلص) كتفيه ولم يرد، في الوقت الذي أجابه دكتور (أمجد) مُعلّقًا على ردّه:

- رُبّما أكون جاهلًا بالتفاصيل كلّها ولكن الاحتمالان قائمان، رُبّما يكون سبب الانفجار هو نتيجة ما حدث من تغيير لمجرى الزمن، ورُبّما الانفجار هو حادث مُشترك بين الخطّين الزمنيين..

كالعادة لم تُرح الإجابة (شريف)...

كان ينتظرُ ردًا قاطعًا، ولم يجدْه...

كما أنّه لم يستطع حل لُغز الجُثّة الغامضة التي كانت تقبع في انتظارُه مع ضحايا الانفجار..

أشخاص تختفي؟ أصبح لها تفسيرها الآن..

ولكن أشخاص تظهر من العدم؟

لا يزال هذا اللغز قائمًا..

ثُم كيف سيكون تقريرُه؟

كيف سيرُد على أسئلة مسؤوليه؟

وأهالي الضحايا؟

قاطع أفكاره صوت دكتور (أمجد) وهو يُعيد طلبه مرّة أُخرى قائلًا:

- فكما ترى يا سيد (شريف) نحنُ بحاجة إلى مُساعدتك، فلكي نجد من اغتال الوزير في خطّنا الزمني الأصلي وقعنا في هذه المُشكلة الـ..

وجد (شريف) نفسه يُقاطعُه وهو يصيح في وجهُه في ثورة:

- مُشكلة؟؟!

بُهت دكتور (أمجد) للحظة من رد فعله، في الوقت الذي تابع فيه (شريف) صُراخه:

- أعتقد أنّك تقصد مُصيبة!! إذا مرّ الأمر بنجاح نفرح بالعلم وبجهود العُلماء، ولكن في مُصيبة كهذه نختطف (شريف) ونسأله المساعدة؟!

لم ينطق دكتور (أمجد) في حين زمجر (مُخلص) وتحرّك في مكانه كنايةً عن عدم تقبّله لأسلوب (شريف) فأشار إليه دكتور (أمجد) إشارة خفيّة أن يصمُت، في الوقت الذي أكمل فيه (شريف) بنفس اللهجة وهو يتحرّك نحو الباب:

- لن أتحمّل مثل هذا الهُراء أكثر من هذا!!

ثم توقّف في مكانه واستدار برأسه نحو (مُخلص) موجهًا له الكلام بغضب مكتوم:

- ولن يمُر ما فعلته مرّ الكرام..

قالها وخرج في عاصفة من الغضب وصفق الباب خلفه، فقام (مُخلص) بسُرعة من مكانه ليلحق به، ولكن قاطعته إشارة أُخرى من دكتور (أمجد) وهو يقول بتوتر:

- دعُه يا (مُخلص)، سيرجع مرّة أُخرى..

توقّف (مُخلص) وطأطأ برأسه في احترام مُصغيًا لباقي الحديث:

- الأمر أقسى مما يتحملّه أي شخص، دع كل ما عرفه يتغلغل بداخله حتّى يهدأ تمامًا وسيعود وحده..

قالها دكتور (أمجد) وساد الصمت بعدها..

قالها ونظر في ساعته وهو يدعو في أعماقه أن يكون على صواب..

وأن يعود (شريف) في الوقت المناسب..

***

تحرّكت «الڤان» بخفّة في شوارع مدينة نصر الجانبية وسائقها يُحاول ألّا يلفت الانتباه إليه..

لا يدري لم قد يُثير شكّ أي أحد خاصةً وهو يقود سيارة عادية لا يُميّزها شئ، ولكنّه كان يعرف السبب..

إنّه توتّر اقتراب لحظة الصفر..

كان يشعر وكأن رأسه أصبحت شفّافة وأن كل من يمُر بِه يرى أفكاره ويُدرك ما هو بصدده..

كانت عقارب الساعة قد تخطّت مُنتصف الليل بقليل..

وقت استطلاع أخير..

كانت عينه تطوف على المباني شِبه المُظلمة والمحلات المُغلقة..

لا أثر لأي مخلوق..

جميل..

تحرّك ببُطء مُستترًا بالظلام حتّى أتم أربع دورات حول ذلك المُربع السكني، قبل أن يتوقّف على ناصية شارع ما، ويُطفئ مُحرّك (الڤان) ليعُم الصمت المكان ويُصيخ سمعه وعيناه تدوران في كل مكان عسى أن يُدركه أحد، ولكنّه لم يجد سوى الهدوء المُطبق.

تنهّد في راحة وأخرج سيجارة من جيبه وأشعلها وسحب نفسًا عميقًا كتمه داخله لثوانٍ قبل أن يُخرجه ببُطء.

كان كل شيء يسير حسب الخُطّة المرسومة..

ذلك النحيل عبقري بالفعل..

تذكرته للثراء..

ألقى نظرة على هاتفه الشخصي مُترددًا قبل أن يحسم أمره ويُطفأه..

فات أوان التراجُع الآن، ولا يُريد أي شيء أن يُعيقَه..

ولن يسمح لأي شخص - مهما كان – أن يُفسد عليه الأمر..

أغمض عينيه وهو يُحاول أن يُهدّئ أعصابَه ويستعيد تركيزه ويُراجع الخطوات الباقية حين قاطعه اهتزاز هاتف محمول صغير مُلقى بجانبه حين أضاءت شاشتُه بكلمتيّ (غير معروف)..

التقطه بسرعة واضعًا إيّاه على أذنه بعد أن ضغط زر الإجابة ولم ينطق بكلمة واحدة وهو يُنصت بإمعان وعيناه تتحركان على المكان أمامه وكأنّه يبحث عن شيء ما قبل أن تتوّقف عند مكان خالي بين سيارتين وهو مازال يُنصت لمُحدّثه لثوانٍ ثم يُنهي المُحادثة بدون أي صوت ويدُس

الهاتف في جيبه، ويُدير مُحرّك السيارة ويتحرّك لعدّة أمتار حتّى يصل للمكان الخالي ويركن السيارة باحتراف موازيًا للرصيف..

استمرّت قبضتُه تعتصر المقود في قوّة لثوانٍ وهو يشهق ويزفر ببُطء ليُنظّم أنفاسه، قبل أن يترجّل من السيارة ويُغلق الباب بهدوء..

اتّجه للصندوق الخلفي ليفتحه ويتطلع لمحتوياته وصوت ضربات قلبه يكاد يوقظ سكّان الشارع كلّه..

كان صندوق (القان) خاليًا تمامًا إلّا من الوعائين البلاستيكيين المملوئين بالسائلين الأزرق والأصفر، وتمتد منهُما أسلاك مجدولة تنتهي بشاشة إلكترونية صغيرة بجانبها فراغ مستطيل الشكل في حجم ريموت صغير، أخذ نَفَسًا عميقًا وانحنى يعبث ببعض الأسلاك هنا وهُناك ويصلهُم ببعضُهم كما علّموه..

لم يأخُذ منُه الأمر سوى بضع دقائق حتى انتهى واعتدل ليُلقي نظرة مُتفحصّة أخيرة، قبل أن يُخرج هاتفًا صغيرًا من جيبه، لم يستخدمْه من قبل، ودسّه في الفراغ المُستطيل الصغير وأوصله بقابس من الأسفل يتّصل بالوعائين والشاشة، وليتأكّد من عمله أخرج الهاتف الصغير الآخر وضغط زر الاتصال فيه على الرقم الوحيد المُسجّل عليه

فأضاء الهاتف الصغير أسفل الوعائين وارتسم على شاشته رقم ١٠ وبدأ عدّ تنازلي كل ثانية، فأغلق الخط ليتوّقف العد التنازلي وينطفئ ضوء الموبايل وتنطفئ الشاشة تمامًا..

وهنا ارتسمت ابتسامة متوترة ظافرة كسرت جمود وجهه قبل أن يتراجع بظهره ويُغلق باب صندوق السيارة.

مع كل خطوة يخطوها يقترب أكثر من حلم الملايين..

توّقف للحظات وهو ينظر حوله وعلى الشُرفات ليتأكد من عدم وجود أحد ما..

اطمئن عندما وجد أنّه وحيد في الشارع..

تحرّك بخفّة لجانب السيارة وبدأ بكشط جزءٍ من طلائها بأظافره ليكشف طرف الشريط اللاصق العريض الذي كان قد لصقُه من قبل، وينتزعه بسُرعة..

توّقف ليُلقي نظرة على شعار المحطة الإخبارية الشهيرة وهو يُشعل سيجارة أخرى ويلتقط نَفَس عميق منها ثُم يُلقي نظرة سريعة على البيوت القريبة قبل أن يستدير واضعًا يديه في جيب معطفه ويسير مُبتعدًا دون أن ينظر ورائه..

***

عبر (شريف) بوابة المكان بخطوات واسعة وهو يكاد

جودة الكتب جرافيك

يشتعلُ غضبًا..

ولا يدري حتّى ما هي الخطوة التالية..

لأول مرة في حياته المهنية يشعُر بمثل هذا العجز..

كان يعتقد أنّ الأمر سيكون أكثر وضوحًا عند معرفة تفسير الاختفاءات، ولكنّه لم يكُن بهذه السهولة، تجارب علمية وفيزياء وخطوط زمنية وتفسيرات لا تُقنع العقل، وبالرغم من أن القائد العام على علم بهذا إلّا أن علمه به لا يعني اقتناعُه ولا يشمل اقتناع غيره..

والرأي العام؟

وصل الأمر للصحافة بالفعل، فكيف له أن ينهي قضية بهذا الشكل؟!

دار بعينيه في المكان ليرى أين هو، كان الظلام ما يزال سائدًا وأدرك من لافتة قريبة أنّه في مكانٍ ما من القاهرة الجديدة، نظر في ساعته ليجدها تخطّت الثالثة صباحًا، ففكّر أن يتمشّى قليلًا ويُعطي لنفسه فًرصة ليهدأ..

لم يذُق طعم النوم لأكثر من ٤٠ ساعة الآن..

منذ أن جاءه اتصال الـ.... المستشفى!

اللعنة!

حودة الكتب حرامية

لا يدري كيف نسي؟!

كانت الساعات الأخيرة مغمورة بالصدمات والأحداث الغريبة لدرجة أنّه نسي تمامًا أن يسأل على أحدث تطورات موضوع انفجار المستشفى وتحليل عيّنة الجُثّة الغامضة..

سحب هاتفه من جيبه ليتصل بالمعمل الجنائي وقبل أن يضغط على زر (اتصال) وجد الهاتف يهتزّ في يده واسم (عماد) يرتسم على الشاشة، اندهش (شريف) للحظة قبل أن يُجيب:

- (عماد) صباح الخير، كُنت على وشك الاتصال بِك..

أتاهُ صوت (عماد) يقظًا بالرغم من الوقت المُتأخّر، وهو يرُد:

- صباح النور يا (شريف)، نحن مازالنا في المعمل، انتهينا من التحليل بالفعل وفكّرت أن أُخبرك قبل صدور التقرير الرسمي، أعرف أنّك عادةً لا تنام طالما في قضية..

- أحسنت، أخبرني، أحتاج بعض الضوء هُنا..

تنحنح (عماد) قبل أن يُجيب:

- احم، لا أدري ما كُنت سأُلقي ضوء أم سأمنعه، ولكن العينة التي أرسلتها إلينا لم تكُن كافية لمعرفة مُلابسات الوفاة

دودة الكتب حرامية

فتوليّت مُهمّة نقل الجُثّة نفسها من مكان الحادث إلى المعمل هُنا.. وعليها عرفنا الآتي..

صمت للحظة، فاشتعل فضول (شريف) الذي توقّف عن السير واستند على سيارة ما مركونة إلى جانب الطريق ليُنصت باهتمام إليه وهو يستطرد:

- حالة الجُثّة كانت سيئة للغاية، أنسجتها مُتداعية وأعضاؤها الداخلية مُتهتكة وشبه ذائبة وكأنّها تعرّضت لحرارة عالية جدًا، أعلم أنّه ضحية انفجار ولكن آثار الاحتراق والذوبان تبدو وكأنّها صادرة من الداخل للخارج وليست سطحية كما يُعتقد، ومن توزيع التهتُّك يُمكنني أن أُجزم أن هذا حدث بمُعدّل بطيء اممم، وصاحبها لا يزال حيّ..

ارتج على (شريف) وهو يتخيّل المنظر، في حين تابع (عماد) قائلًا:

- وبالطبع ليس لدينا سجلّات أسنان كما تعلم ولم تكُن لتنجح أيضًا لأن الأسنان كلّها مُتفحّمة وشبه غير موجودة، فلم يتبق لدينا سوى تحليل الحمض النووي وهُنا أصدقك القول يا (شريف) يُمكنني التأكيد على أن هذه هي المرّة الأولى التي أواجه فيها شيئا كهذا..

صمت ثوانٍ ليبتلع ريقُه في حين اشتعل فضول (شريف) فسأله في توتر:

- ماذا أيضًا؟

تنحنح (عماد) مُترددًا قبل أن يُجيب:

- امممم، الحمض النووي في طبيعته هو جُزئ يتكوّن من نيوكليوتيدات ترتبط جميعها ببعضها البعض لتشكيل سلسلتين حلزونيتين من الفوسفات والسُكر الخُماسي وقواعد نيتروجينية ويُمكن عن طريق الحمض النووي حفظ المعلومات الوراثية الموجودة في الخلـ..

- (عماد)!

قاطعُه (شريف) وهو يقول في حدّة:

- ارحمني من المُحاضرات العلمية! ما بالكم اليوم لا أحد فيكُم يتحدّث العربية!

جاوبُه صمتُ مُطبِق وإن تخيّل رد فعلُه الآن وهو مصدوم من الهجوم المُفاجئ، فأسرع يقول بلهجة مُعتذرة:

- اعذرني يا (عماد)، لم أنم منذ أيام وكان يومي طويلًا، أقصد فقط أن تعفيني من الجُزء العلمي الذي لن أفهمَه بطبيعة الحال..

جودة الكتب جرامية

أتاه صوت (عماد) يقول في لهجة مُشفقة:

- لا عليك، مُتفهّم تمامًا، حسنًا.. كُنت أقول إن هذه البنية حلزونية الشكل ومُزدوجة الطبيعة تُناسب مُهمّة حفظ المعلومات الوراثية وذلك لأن معرفة تسلسل خيط واحد فقط يُخبرك تلقائيًا بتسلسل الخيط الثّالي، هذا غير قُدرته على الاستقرار لفترات كبيرة جدًا خصوصًا في درجات الحرارة المُنخفضة، وبما أن الحمض النووي لجميع البشر يتشابه بنسبة حوالي ٩٩.٩٪ فنسبة الـ ٠.١٪ هي التي تُميّز كل شخص عن الآخر.. هذا في الحالات العادية ولجميع البشر.. فيما عدا هذه الجُثّة يا (شريف)..

اعتدل (شريف) في وقفته وهو يضغط على الهاتف ليلتصق بأُذنه أكثر و(عماد) يُكمل بلهجة حائرة:

- الحمض النووي لهذه الجُثّة مُختلف تمامًا عن أي حمض نووي رأيته في حياتي، هو بشري هذا أكيد ولكن ذرّاته غير مُستقرّة بأي حال من الأحوال لدرجة أني لا أستطيع أن أؤكّد عِرقه ولا صفاته، حتّى أن الجُثّة لا تزال تتداعى حتّى الآن وكأنّها تتحلّل بالبطئ، غير هذا لا أستطيع أن أفيدك بأي شيء يا (شريف).. هذه أغرب حالة تُقابلني على مدار أعوام عملي الطويلة.

كان (شريف) يدرك تمامًا ما يشعُر به، فلم يضغط عليه

وصمت لثوانٍ وهو يُفكّر في اللغز الجديد الذي أُضيف إلى قائمة الألغاز..

زفر في حنق وهو يشكُر (عماد) على مجهوداته وقبل أن يُنهي المُكالمة معه تذكّر شيئًا ما، فسألَه:

- صحيح، الورقة؟

- أي ورقة؟ آها، الورقة، نعم، لا، لا شيء مُميّز بها، مُجرد ورقة عادية من لُب الخشب كأي ورق يُباع مُنفردًا أو جُزء من مُذكرّات في المكتبات، فقط عليها آثار نفس الحمض النووي للجُثّة المجهولة.

شعر (شريف) بخيبة أمل، فرد بسُخرية مريرة:

- أخيرًا شيء واحد مألوف..

جاوبه (عماد) بصوت حمل ابتسامة في طيّاتِه:

- يُمكنك أن تقول هذا..

ثُم أضاف مازحًا:

- والمرة القادمة، أمسك الأدلة بمِبضع، فقد لطّخت الورقة ببعض من حمضك النووي.. عالعموم، يُمكنك أن تتصل بي في أي وقت يا صديق.. مع السلامة.

جودة الكتب حرامية

همّ (شريف) أن يقول شيئًا ولكن (عماد) أنهى المُكالمة سريعًا، ففكّر أن يتصل بـ (عظيم) ولكنّه تراجع عن رأيه في آخر لحظة، أراد أن ينظّم أفكاره أولًا، ثم إنّه لا يدري كيف سيشرح له أيّ مما عرف، هذا إذا ما استطاع (أحمد) أن يتكلّم بجديّة لأكثر من ٥ دقائق..

وقف في مكانُه يُفكّر في الخطوة التالية، هل يتّجه إلى منزله لينال قسطًا من الراحة ليستطيع التفكير بشكل سليم أم..؟

امممم، قفزت إلى باله خاطرة، لو نجحت، ستُعيد الأمور كلّها إلى نِصابها السليم..

رُبّما..

أخذ قراره ودسّ هاتفه في جيبه..

وعاد أدراجه لمعمل دكتور (أمجد)..

***

فتح (مُخلص) باب الفيلا في هدوء وهو يرمُق (شريف) بنظرة مُتشفية دون أن ينطق، في الوقت الذي تجاهلُه (شريف) تمامًا ودلف في نفس الطريق الذي خرج منه حتّى وصل لباب المعمل الداخلي وطرقُه طرقة قصيرة وفتح

الباب ليجد دكتور (أمجد) جالسًا على وجهه ابتسامة هادئة، وكأنّه كان يعلم أنّه سيعود..

- أهلًا يا سيد (شريف)، كُنت واثق أنّك ستعود..

- أنت تُريد مُساعدتي، وأنا لديّ فكرة ما..

اعتدل دكتور (أمجد) في مجلسه وهو يُشير لكُرسي قريب لـ (شريف) ليجلس وهو يرُد:

- أرجوك، تفضّل.. أي شيء قد يُفيد في مثل هذه الظروف..

هزّ (شريف) رأسه نفيًا رغبةً منه في الوقوف وتخطّى (مُخلص) الذي كان قد دلف للمعمل في نفس اللحظة وأغلق الباب خلفه، وأمسك القلم واتّجه نحو اللوحة إيّاها ورسم عليها خطًا مُستقيمًا شبيهًا بالمثال السابق، يخرج من نهايته خط آخر مُنحني يعود أدراجه لنُقطة في مُنتصف الخط المُستقيم كتب فوقها (الماس الكهربائي) وألقى القلم على الطاولة والتفت إلى دكتور (أمجد) الذي نظر إليه بتساؤل..

لوّح (شريف) بيَده وهو يشرح فكرتُه:

- لمّ لا نضبط مرآتك السحرية على توقيت ما قبل سقوط اللُعبة عبرها وأحد ما يعبر منها ليمنع حدوث سلسلة الأحداث التي ترتّبت عليها، أعني أن – لو كُنت قد فهمت ما شرحت

- فسقوط مُجسّم الطائرة هو ما خلق الخط الزمني الحالي عندما وصلت إلى الطيّار (رضوان) فلو منعنا ذلك من الحدوث فلن يشُب كطيّار ولن تسقُط الطائرة ولن يموت الناس وهكذا..

بدت خيبة الأمل واضحة على ملامح دكتور (أمجد) وهبّ من مكانه وهو يزفُر بنفاذ صبر مُجيبًا:

- أولًا اسمه (رضا)، ثانيًا هل تعتقد أن هذا الاحتمال لم يجُل بخاطري؟! هذه المحاولة الانتحارية مُستحيلة لعدّة أسباب، أهمّها أن نهر الزمن لا يجري بالطريقة التي تتخيّلها ولا يتخيّلها أي شخص، نحنُ لا ندري حتّى ماهيته لنتعلّم كيف نعبُره بأجسادنا البشرية، فما تقول لا يشترط أن يسير بنفس البساطة التي شرحتها، فبرجوع شخص ما – هذا إن وجدت مجنونًا يوافق أصلًا – لن يُصلح ما حدث بل بالعكس، رجوعه سيخلق خطًا زمنيًا ثالثًا غير مضمونة عواقبه ولا أحد يدري كيف سيكون، بل رُبّما يُزيلنا من الوجود من البداية، والشخص الذي سيعود بالزمن سيوجد بجسدين في نفس الزمن ولا ندري كيف سيكون نتيجة هذا عليه أو على نُسخته القديمة ناهيك عن نجاته من التجربة أصلًا..

احتقن الدم في وجهه وهو يُتابع في حنق:

- حتّى وإن حدث واجتمعت النُسختان في نفس الزمن لابُد وأن يكون ذلك لفترة قصيرة جدًا قبل أن تتداعى إحداهُما وتتلاشى تمامًا..خط الزمن دائمًا ما يُصلح نفسه يا سيد (شريف)، كُنت أعتقد أنّك قد فهمت قواعد اللعُبة..

لهث للحظات وهو يلتقط أنفاسه و(شريف) يقف أمامه عاقدًا ذراعيه على صدره وفكرة ما تختمر في عقله، في الوقت الذي استطرد فيه دكتور (أمجد) في ضيق:

- كل هذا في كفّة، وكفاءة (خرونوس) نفسها في كفّة أُخرى، فالجهاز لن يحتمل مرّة تشغيل كاملة أخرى، الماس الكهربائي مع الطاقة الزائدة سبّبا ذوبان مُكثفّات حيوية لن نستطيع توفيرها في أي وقت قريب إطلاقًا، وكمّية الطاقة التي يحتاجها الجهاز للوصول لحالته المثالية غير متوفّرة الآن ولن تحتملها باقي مكوّناتُه..

قال (شريف) بعد لحظة صمت:

- لو على المجنون فهو موجود، ولكن هل تستطيع تشغيله بطاقتُه القصوى مرّة أخيرة؟

نظر إليه دكتور (أمجد) في استنكار قبل أن يهتف:

- هل كُنت تسمعني؟ قُلت لك أن الجهاز لن يحتمل، إذا ما تم تشغيلُه لن يحتمل أكثر من ثوانٍ وسيتوّقف عن العمل

لأجلٍ غير مُسمّى، وحتّى لو، فأنا لن أسمح بمثل هذه الحماقة بدون دراسة كافية!

زم (شريف) شفتيه وأطرق برأسه للأرض وهو يُفكّر..

أمّا دكتور (أمجد) فقدْ فَقَدَ الأمل تمامًا..

كان يتمنّى أن بمُشاركة (شريف) ما حدث رُبّما يجد لديه حلاً ما..

ولكنّها مسدودة من جميع النواحي..

كان يشعُر بقلّة الحيلة، يأكلُه الندم لإحساسُه أنّه المسؤول عن كل هذا، كان الأمر ثقيلًا على كاهليه ولكنّه تعب من كثرة التفكير، ولا وقت للراحة..

كُل دقيقة تمُر هي حياة شخص تضيع وحدث ما يتغيّر..

وهُنا رفع (شريف) رأسُه وهو يقول:

- ورقة..

نظر إليه دكتور (أمجد) في عدم فهم، قبل أن يتسائل:

- معذرة؟ أيّ ورقة؟

- هل بإمكاننا أن نُرسل ورقة؟ نُلخّص فيها ما حدث أو نكُتب فيها رسالة ما ونوجّهها لي وأنا سأتّخذ إجراءاتي..

صمت دكتور (أمجد) مُفكرًا واحترم (شريف) صمته الذي استمر لقُرابة الدقيقتين قبل أن يحسم أمره ويُجيب في حزم:

- أعتقد أن الجهاز يتحمّل العمل للثواني التي سنُرسل فيها الورقة ولكن تعديل بسيط في الخُطّة..

نظر إليه (شريف) في تساؤل، وهو يُكمل:

- سنُرسل الورقة لي هُنا في المعمل، لو أرسلناها لك فنحنُ نُخاطر بنفس فكرة إرسال شخص من حيثُ خلق خط زمني ثالث، المعمل هُنا خارج نطاق تأثير (خرونوس) كما شرحتُ سابقًا..سأُرسلها لي هُنا وأنا سأتصرف..

بدت نظرة (شريف) جامدة بشكل غريب وهو يقول:

- حسنًا، لن يصنع ذلك فارقًا طالما سنحل هذه المُصيبة..

- اتّفقنا، ماذا تُريد أن تكتُب؟

- اكتب أنت ما تُريد، أنت تعرف نفسك أكثر من أي أحد وتعرف كيف تُقنع نفسك..

قالها (شريف) وهو يهُز كتفيه في لا مُبالاة وهو يرتكن على الطاولة ويُراقب المعمل الذي تحوّل إلى خلية نحل و(مُخلص) يُساعد دكتور (أمجد) في تجهيز المرآة وتوصيل

بعض الأسلاك وهو يركُض هُنا وهُناك ويعبث بالأزرار والأنوار تبدأ في الإضاءة تباعًا يعقُبها صوت هدير بسيط لمولّد ينبعث من مكان ما..

لم تمُر عدّة دقائق إلّا وكان الأمر جاهزًا، ودكتور (أمجد) يقف عند لوحة التحكّم بعد أن أعطى ورقة طويلة مطويّة شرح فيها الموقف باختصار إلى (شريف) ليُمرّرها عبر المرآة عند تشغيلها واستقرارها..

- جاهز يا سيد (شريف)؟

- جاهز يا دكتور..

أجابُه (شريف) في شرود وهو يعبث بالورقة في يده مُنتظرًا إشارة البدء..

ضغط دكتور (أمجد) على أزرار اللوحة الإلكترونية بنفس التتابُع السابق، بعد أن عدّل المؤشّرات للتاريخ والتوقيت المضبوط على الشاشة البلورية، ثم سحب الذراع الصغيرة بجانبه وتراجع للخلف..

مرت ثوانٍ قبل انبعاث الوميض الأبيض الساطع من سطح المرآة فأغلق الجميع أعيُنهم بقوة مع ارتفاع صوت الشرارات الكهربائية وسط تفريغ الهواء، ثوانٍ أُخرى قبل أن ينسحب الوميض داخل المرآة مرّة أخرى وتهدأ الأصوات ويتحوّل

سطح المرآة العاكس إلى شكل الغيوم التي ما لبثت أن هدأت ليظهر مكانها منظر المعمل واضحًا و(مُخلص) يتحرّك فيه كعادته..

فغر (مُخلص) فاه وهو يرى نفسه يتحرّك في المرآة في الوقت الذي صاح فيه دكتور (أمجد) بلهفة:

- الآن يا سيد (شريف).. ألق الورقة! بسُرعة!

وما حدث في اللحظات التالية كان مُفاجأة لكل من في الغُرفة..

فأمام عينيّ دكتور (أمجد) المُلتاعتين، قبض (شريف) على الورقة بين أصابعه وهو لا يُصدّق أنّه وجد لديه الجرأة الكافية ليقفز عبر المرآة في نفس الوقت الذي صرخ فيه دكتور (أمجد) من المُفاجأة وهو يفرد ذراعه أمامه، في الوقت الذي تحرّك (مُخلص) فيه حركة لا إرادية وكأنُه سيمنعُه ولكنّه لم يجد الوقت الكافي..

فما أن لمس (شريف) سطح المرآة حتّى تألّقت في قوة..

تألّقت كأنّها شمس صغيرة أشرقت في جو الغُرفة..

وانطلق لسان كهربائي من بين إطارها فرقع في عُنف..

ورفع دكتور (أمجد) ذراعيه ليحمي وجهه وهو يحتمي بـ

(مُخلص)..

قبل أن تنفجر المرآة وتتناثر شظاياها في كل مكان..

وينقطع التيار الكهربائي..

ويسود الصمت المكان..

***

كان دكتور (أمجد) يُدرك أهمية الوقت..

كان يعرف أن لكل ثانية ثمنها..

وكان هذا هو الهدف الرئيسي من برنامج (خرونوس) من البداية، شهور وأعوام من العمل الدؤوب وسهر الليالي والأوقات العصيبة في سبيل تطويع قواعد الفيزياء ورفع علم انتصار البشر على قوانين الكون..

نقلة علمية سترفع (مصر) إلى مصاف الدول العُظمى..

ولا بأس من نوبل أو اثنتين يُزيّن بهما تاريخه الحافل ويتقاعد على حسّهما..

ولهذا تحتّم عليه العمل ليل نهار..

ولهذا كان مُنهمكًا حتّى النُخاع حتّى انتهى من توصيل الأسلاك اللازمة بلوحة التحكّم والتأكّد من سلامة البرنامج

المسئول عنها وهو يصيح في (مُخلص) ليؤكّد على التوصيلات المُتّصلة بصندوق التوزيع الخلفي..

كان هذا عندما حدثت الفرقعة..

قبل ثوانٍ من حدوثها انتصبت الشُعيرات على سواعدهم نتيجة لشحن ستاتيكي للهواء، فترك كلُ منهم ما في يده ورفعها مُتعجبًا وهما يتبادلان النظرات في دهشة عندما انبعث صوت مُفاجئ من الفراغ في سماء الغُرفة مع هواء عاصف وشرارات كهربية انبعثت من العدم، تظهر وتختفي وكأنها دوّامة تولد من اللّا شيء!

تراجع دكتور (أمجد) في خوف في حين حماه (مُخلص) بجسده وهما يتطلّعان إلى الفراغ المشحون أمامهما والشرارات الكهربية تنبعثُ منه وتتراقص في جنون بطريقة خلخلت الهواء في كل مكان وطفت الأوراق من على الطاولات لترتفع في سماء الغُرفة وكأنّه إعصار يولد داخل جُدران المعمل..

قبل أن يندفع شيء ما بعُنف من العدم!

جسد بشري شبه مُحترق تتصاعد منه الأبخرة المُختلطة برائحة شواء شديدة..

انتفض دكتور (أمجد) في مكانه وهو يشهق في عُنف في

حين انقبضت أصابع (مُخلص) على معطف دكتور (أمجد) وهو يعقد حاجبيه دون أن ينطق كعادتُه، لا يزال العمل في هذا المعمل يحمل له مُفاجأة جديدة كل يوم!

أخذ الأمر ثوانٍ من دكتور (أمجد) ليستوعب ما حدث قبل أن يهتف بـ (مُخلص) ليفحص الجثّة التي لدهشته كانت لشخص لا يزال حيًا!

بالرغم من حالته بالغة السوء!

- يا إلهي! يا إلهي! الرائحة لا تُطاق، وبالرّغم من السوء الذي يبدو عليه إلّا أنّه لا يزال يتنفّس.. ما هذا يا دكتور (أمجد)؟! من هذا؟! ومن أين أتى؟!

كانت لهجة (مُخلص) مهزوزة مُتوتّرة وهو يفحص الشخص الغامض في حِرص خوفًا من تعريضه لمزيد من الألم، فمَن في مثل هذه الحالة لابُد وأنّه في جحيمٍ حيّ..

كان فاقدًا للوعي، نصف شعره مُلتصق برأسه بفعل حرارة شديدة ووجهُه مُصاب بحروق من الدرجة الثالثة أخفت ملامحه بصورة شبه كاملة، ممّا ولّد شعورًا بالشفقة المُختلطة بالاشمئزاز لدى (مُخلص) الذي شرع في نقله لسرير يحتل ركن قصيّ من المعمل وفقًا لتعليمات دكتور (أمجد)..

كان يُحاول أن يجد شريانًا سليمًا وصالحًا لتركيب محلول

ملحي يعوّض جفاف السوائل في الجسد المُتداعي، ثم حقنه بمُسكّن قوّي بتركيبه خاصة غير متداولة في الأسواق..

انشغل (مُخلص) تمامًا في الوقت الذي كان عقل دكتور (أمجد) يكاد يُجنّ فيه من فرط التفكير، مُحاولًا أن يفصل عقليته العلمية عن صدمته كبشري عادي رأى شخصًا ما يظهر من العدم أمامه مُحترقًا وكأنّه في حفلة شواء..

اشتعلت خلاياه الرمادية من آلاف الاحتمالات التي افترضها في محاولة لتفسير ظهور هذا الشخص الغامض بهذا المنظر الغريب بحالته المُتداعية هذه هُنا في معمله..

سحبُه صوت (مُخلص) من أفكاره وهو يتساءل:

- ما الخطوة الصحيحة يا دكتور؟

- سنُبلغ الشُرطة بالطبع، لابُد من توثيق الحادث وسنأخذه على المستشفى العام، لا نملُك المُعدّات الكافية هُنا لمُساعدته..

أومأ (مُخلص) برأسه في موافقة وهو يهتف:

- هل سيتحمّل مشوار الطـ...

بتر عبارُته فجأة وهو يتطلّع في فضول لكف الشخص المُسجى أمامهم على الطاولة الذي انقبض على شيء ما،

فتناول مبضعًا من على رف مجاور وبأصابعه في القُفّاز الطبّي فتح الأصابع ببُطء ورفق وسحب الورقة من بينهم بالمبضع..

فضّها بحركة سريعة وشرع في قرائتها أمام دكتور (أمجد) الذي كان ينظر إليه بتساؤل ما لبث أن تحوّل إلى صدمة فارتياع واتّسعت عيناه في دهشة عارمة و(مُخلص) يستمر في القراءة ببُطء غير مُصدقٍ هو الآخر، حتّى انتهى جثم صمتٌ ثقيلٌ على المكان..

- إذًا فأنا أرسلت هذه الورقة لنفسي من المُستقبل لأُنبّه نفسي من كارثة ما ستحدُث بسببي.. أمممم..

وتطلّع إلى ساعتُه وهو يُكمل في جزع:

- في أقل من يوم فقط!

طوى (مُخلص) الورقة ووضعها جانبًا وهو يسأل:

- إذًا فهذا الشخص هو زميل في الإدارة؟ هذا يُغير بعض الأمور..

- بالفعل، لن نستطيع إبلاغ الشُرطة الآن، بل يجب إبلاغ المكتب المسؤول ونقله إلى المستشفى العسكري عوضًا عن المستشفى العام و....

قاطعتُه تأوهات انبعثت من (شريف) فترك كلٌّ منهما ما في يده وأسرعا إليه، ودكتور (أمجد) يقول له في شفقة:

- سيد (شريف)، لا يُمكنني أن أتخيّل الألم الذي تمُر بِه الآن ولكن (مُخلص) هُنا حقنك بمُسكّن قوّي سيبدأ مفعولُه في أي لحظة الآن، تركيبة جديدة وغير متداولة ستُخفّف ما تمُر به بشكل كبير على الأقل حتّى تصل للمُستشفى..

حرّك (شريف) عينيه نحوه وهو يُحاول أن يبتسم مُتمتمًا في ألم:

- يبدو أنّك كُنت على حق يا دكتور..

لم يفهم دكتور (أمجد) ما يقصده ولكنّه لم يحاول أن يُجهده في محاولة التفسير، فوجّه كلامه إلى (مُخلص) قائلًا:

- أُريدك أن تُبلغ بالأمر لمكتب العميد (...) ليُرسلوا سيارة إسعاف مُجهّزة للحالات الخطرة، ولا تنس أ....

بتر عبارتُه فجأة إثر مُقاطعة (شريف) له وهو يُحاول أن يعتدل في مكانه قائلًا في ضعف:

- لا وقت لهذا يا دكتور، يجب أن نتحرّك فورًا قبل الموكب..

هب (مُخلص) لمُساعدته في حين نظر إليه دكتور (أمجد)

في استنكار قائلًا:

- ماذا تظُن أنّك تفعل؟!

جاوبه (شريف) وهو يترجّل من على السرير ورائحة الشواء تنبعث منه بقوّة:

- أُريد أن أذهب لمكان الانفجار، لا وقت نُضيّعُه..

- ولكن..

قاطعُه (شريف) مرّة أُخرى وهو يُحاول أن يبدو حازمًا قدر استطاعته:

- لا نمُلك رفاهية الاعتراض يا دكتور (أمجد)، لابُد أن نحاول إيجاد طرف الخيط، وأعدك أن أذهب للمُستشفى بعدها..

والتفت إلى (مُخلص) وهو يُحاول أن يبتسم بفم شبه مُلتصق قائلًا:

- هلّا أوصلتني؟ لا أعتقد أنّي سأجدُ تاكسيًا يقلّني بحالتي هذه..

تطلّع (مُخلص) إلى دكتور (أمجد) الذي ظهرت علامات الاعتراض على وجهه واضحة جليّة ولكنّه اكتفى بإشاحة وجهه قائلًا:

- حسنًا إذًا..

لم يتردّد (مُخلص) في مُساعدة (شريف) ولم تمض دقائق إلّا وكانا في سيارة المعمل الفارهة في طريقهما لمدينة نصر حيثُ شارع الموكب..

غلّف الصمتُ كلًا منهُما حتّى تشمشم (مُخلص) الهواء في السيارة وهو ينظر بطرف عينه نحو (شريف) قبل أن تتسّع عيناه في ارتياع وهو يقول في جزع:

- سيد (شريف)! يا إلهي!

كانت حالة (شريف) قد ازدادت سوءًا وبقايا بشرته التي كانت سليمة أصبحت مُحمرة بُنية وتساقطت منها رُقع صغيرة في كل مكان وتهدّل جلد وجهه نحو عُنقه حتّى صار وكأنه إناء خزف لم يكتمل صُنعه..

كان فمُه قد قارب على الالتصاق تمامًا هو الآخر وتسارعت أنفاسُه وهو يشعُر أنُه على وشك الاحتضار، يبدو أن جسده يتداعى بمُعدّل أسرع ممّا توقّع ولولا المُسكّن القوي الذي تم حقنه به لكان الأمرُ مُختلفًا تمامًا..

بهذا المنظر لم يبق أمامه سوى دقائق معدودة..

كاد (مُخلص) أن يُعدّل طريقه ويتّجه إلى المستشفى لولا

أن منعته نظرة رجاء من (شريف)، لم يُرد أن يضيع مجهوده سُدى..

فعدل عن تفكيره واستمر في طريقه..

ولم تمض دقائق إلّا وكانا قد وصلا لمكان الموكب..

كان (شريف) يستعيد كل ما حدث من البداية أثناء الطريق، يُفكّر في كل تفصيلة ويستعيد كل لقطة، كان مُقتنعًا أن هُناك شيءٌ ما مفقود، تفصيلة واحدة قد تُساعد في حل اللُغز..

لم يستطع أن يُغادر السيارة في حالته تلك، فاكتفى بالجلوس في مكانه وهو يُجاهد ليلتقط أنفاسه، مُتنقلًا بنظره في الشارع كلِّه، كان يحاول أن يجد شيئًا واحدًا خارج عن المألوف..

حتّى توّقّف ببصره عند مشهد واحد لفت انتباهُه..

سيّارة مركونة في مكان يُعد – من وجهة نظره – حيويًا في مسار الموكب..

ڤان تابعة للقناة التاسعة الإخبارية..

ولم يكد نظره يقع عليها حتّى لمعت عيناه شبه المنطفئتين وانسابت المشاهد من ذاكرته كعقد انفرطت حبّاتُه..

***

«توقّعت أن أستيقظ لأجدني مُتصدّرًا عناوين القناة التاسعة الإخبارية..»

« الفُرصة التّي قد تأتي للشخص ويختار أن يغتنمها ليُصبح من الأغنياء في إحدى جُزر الكاريبي»

«بدا شخصًا غير مُريح بالمرّة بالنسبة له لا يدري لم.. ابتسامته كانت سمجة وحضوره مُنفّر بنظرات قد تبدو خبيثة لمن لا يعرفه، نظرات تُخفي أكثر ما تُظهر، وكأنه يتآمر عليك لا يعمل بجانبك»

«فاسد ويلجأ في بعض الأحيان لأساليب غير شرعية في عمله»

- نعم، لم أتيت سائرًا؟

- بعثُ سيّارتي من أيام، وكنت في سهرة مع أحد أصدقائي بسيارته، نقضي وقتًا لطيفًا عندما جاءني البلاغ فلم أُرد أن أُضيّع الوقت في الذهاب للمنزل أولًا»

« هُناك عمل جانبي أعمل عليه منذ فترة، بدأت أهتم بالتجارة في الشهرين الماضيين، وأعُد العدّة لصفقة ما.. لو جرت الأمور فيها كما أتمنى.. سأُحقق حُلمي وسأعتزل العمل

إلى الأبد..»

« ترك (عظيم) سيجارته وهو يُخرج هاتفه من جيبه الآخر ويتطلّع فيه ويهُز كتفيه ألّا جديد في الأمر، نظر (شريف) لجيبه الأول لثانية قبل أن يُشير إلى الخريطة..»

***

«يبدو أنّه موسم الانفجارات..»

***

كانت للصدمة أثرها على (شريف)، فكان جسدُه يرتجف من الانفعال وهو يُهمهم بكلمات غير مفهومة جرّاء شفاهه شبه الملحومة من الحروق، اقترب منُه (مُخلص) بأُذنُه وهو يسألُه:

- ما.. ماذا...؟ لا أفهم..

رفع (شريف) أصابعه المرتجفة وهو يشير إلى (القان) ففهم (مُخلص) أنّه يُريد منه أن يُلقي نظرة عليها، فترجّل مُسرعًا من السيّارة ودار حول (القان) وهو يتفحّصها بسُرعة ويُلقي نظرة عبر زُجاجها الجانبي ليجد نافذة صغيرة بالداخل بجانب كرسي السائق تُضفي إلى صندوقها الخلفي ويبدو فيه خيال جسم ما موضوع يخرُج منه أسلاك

متداخلة ومتشابكة..

جسم أشبه بقُنبلة..

اتسعت عيناه لحجمها، ثم عاد أدراجه بنفس السرعة إلى السيارة وهو يقول لـ (شريف) لاهثًا:

- عندك حق، هي السيّارة، وفي صندوقها الخلفي قُنبلة بحجم ماكينة بيع تكفي لنسف المُربّع بأكملُه..

كانت حالة (شريف) قد ساءت أكثر وفقد النُطق تمامًا، فرفع أصابعه مرّة أخرى وهو يُشير له وكأنّه يكتُب على الهواء، ففهم (مُخلص) غرضه فتناول قلم مُذكّرة صغيرة من دُرج التابلوه سحب منها ورقة وأسندها على النوتة وهو يدُس القلم بين أصابع (شريف) المُحترقة فالتصق بها وطبع الدم عليها في الوقت الذي نظر (شريف) للورقة في ذهول وهو لا يُصدق عينيه..

كانت الورقة مسطّرة وبها سطر أحمر بأعلاها..

وكانت الصدمة الثانية له في أقل من دقيقتين..

وهُنا عرف ما يجب عليه أن يكتُبه..

وهذه المرّة تمكّن من القلم بين أصابعُه وبذل مجهودًا خُرافيًا ليُمسكُه جيدًا..

هذه المرّة لا يُريد أن تكون الحروف مهزوزة مُتفرّقة وكأن مَن يكتبها هو طفل صغير أو شخصٌ ما لديه شلل رعّاش..

ثم قبض على الورقة ووتشنّجت أعصابُه وهو ينتفض وينتفض..

أدرك (مُخلص) أنّه دخل في صدمة عصبية فأدار مُحرّك السيّارة وانطلق مُسرعًا نحو مُستشفى المعادي العسكري وهو يُمسك هاتفه المحمول على أذنه قائلًا:

- نعم يا دكتور، لا أعتقد أنّه سينجو منها، أنا مُتّجه إلى المستشفى حالًا.. أها.. نعم.. إنّه (أحمد).. نعم يا دكتور، (أحمد).. أها.. حسنًا، بالطبع يا سيدي، فقط قُل لي ماذا أفعل وأنا رهن إشارتك..

ثم صمت لما يُقارب الدقيقة مُستمعًا لدكتور (أمجد) وهو يُمليه خطوته التالية في الوقت الذي كان يُسابق فيه الموت بمحاولة الوصول بأقصى سُرعة للمُستشفى..

لحُسن حظ (شريف) أن الوقت كان لا يزال مُبكرًا والطرق خالية..

أنهى مُكالمته لدى وصوله ساحة المستشفى بعد بضع دقائق، وهرع مهرولًا للداخل وهو يُبرز بطاقته لكل من يعترض طريقه ليجلب مُساعدة في حمل (شريف) ولم تمض

أكثر من دقائق عشر إلّا وكان الأخير مُستلقيًا على سرير خاص في جناح فردي وقد دخل في غيبوبة عميقة، بمُعدّلات حيوية ضعيفة جدًا، تفصله عن الموت بأنفاس بطيئة وضربات قلب مُتهالكة..

لم يدر (مُخلص) ما إذا كان سينجو منها أم لا، ولكنّه كان مُضطرّا للرحيل..

ما زال له دور سيحين بعد – وألقى نظرة على ساعته – قُرابة الساعة من الآن..

تركه بعد أن اطمئن على استقرار حالته نوعًا ما، وخرج مُسرعًا إلى سيارته مرّة أُخرى أدارها وانطلق في صرير عالٍ وقطع بها مسافة مُربّعين سكنيين قبل أن يتوّقف في مكان خالٍ ويُلقي نظرة على ساعته..

مازال أمامَه أكثر من النصف ساعة بقليل..

نصف ساعة تفصلُه عن دوره..

قضاها في ترقّب يعد نبضات قلبه، ويُرهف سمعه وهو يتمنّى أن يكون الدكتور (أمجد) مُحقًا في تقديره كعادته..

ولم تكد عقارب ساعتُه تُنهي الدقيقة الثالثة بعد النصف ساعة حتّى هزّ المنطقة انفجار مروّع على بُعد مُربّعين

سكنيين، وكانت هذه هي الإشارة التي ينتظرها، فأدار محرك السيارة وتحرّك مرّة أُخرى نحو المستشفى..

حيث وقع الانفجار..

***

تلقى الرائد (مدحت) الاتصال وهو في مكتبه يُنهي أوراقه لهذا اليوم، عن وقوع انفجار عنيف في مُستشفى المعادي العسكري، بعد أن كانت نباطشيته على وشك الانتهاء..

أخفى تذمُّرَه خلف إرهاقه من يومه الطويل وأجرّى عدّة مُكالمات هاتفية سريعة..

ثُم تحرّك على رأس قوة أمنية في سُرعة يُحسد عليها، ليصل في الدقائق الأولى من الحادث ويرى – وهو لا يزال في سيارته - الكارثة مازالت وليدة والحرائق مُندلعة من تحت الأنقاض والصُراخ يعُم المكان في لقطة تصلُح لفيلم من أفلام الكوارث التي برعت السينما الأمريكية في تصويرها، وطاقم المستشفى السليم يهرع هُنا وهُناك في مُحاولة لإسعاف المُصابين لحين وصول المُساعدة التي كان هو جُزء منها..

سرت قشعريرة باردة في عموده الفقري وترجّل من السيارة وهو يرتجف من هول المنظر مُتمتمًا في رهبة:

- يا إلهي، كيف حدث هذا؟ تبدو وكأنّها ساحة حرب..

سأله مُساعده عمّا عليهم فعله، فتجاوز الرائد (مدحت) الصدمة وبدأ بإصدار الأوامر لقوّاتِه بالبدء بإحاطة المُربّع بكوردون أمني لمنع المُتطفلّين عن المكان، وبالفعل شرعوا في مدّ الشريط الأصفر المُميّز وإجلاء المُتطفلّين عن حيّز الحادث، في الوقت الذي وصلت فيه سيارات الإطفاء مع سيارات إسعاف من المستشفيات القريبة، ولم تمض دقائق حتى ملأ فحيح خراطيم المياه المكان وهي تُسيطر على النيران التي اندلعت في كل زاوية تقريبًا..

كان الأمر يبدو مُستحيلًا ومُخيفًا في البداية، ولكنّهم لم ييأسوا..

أمّا الرائد (مدحت) فكان يتحرّك بخفّة بين الأنقاض وينتقل من طرف المكان لطرفه الآخر مُمسكًا بنفسه زمام الأمور، حتّى تأكّد أن الأمر بدأ يهدأ ويُصبح تحت السيطرة، فتركهم يقومون بعملهم وشرع مع مُساعده وضابطين آخرين تحت إمرته في التحقيق في سبب الانفجار وهل هو بفعل فاعل أم حادث بحت..

حتّى توصّل لأحد المُمرضّين ممّن نجوا من الحادث والذي شهد أنّه استرق السمع لحديثٍ دار بين (أمين) حارس أمن

البوّابة وأحد الزوّار يخّص لفّة ما استلمها الحارس منه، بها بعض التبغ المخلوط بالحشيش وأنّه سينسلّ بدون أن يُلاحظه أحد ويُدخّنها في مكان ما بعيدًا عن الأعين أو أفواه راغبي المُشاركة..

بالطبّع لم يخطُر ببال أحد أنّ الغبي سيختار غُرفة الكرار التي بها توصيلات للغاز والتّي على حظّه العثر كانت إحداها تُسرّب ومنها بدأت الكارثة..

وأثناء ما كان يستمع لأقوال باقي الشهود، فوجئ بهاتفه يرّن، وما أن التقطت عيناهُ الرقم حتّى رفعُه بسُرعة لأذنه مُجيبًا في إحترام:

- تمام يا سيدي، نعم، كل شيء تحت السيطرة وأنا بنفسي أقـ.. أها، تمام.. تمام.. (شريف)؟.. تمام يا سيدي، أنا في انتظارِه..

ثم أنهى المُكالمة وقال لمُساعده بلهجة حملت القليل من الضيق:

- سيتولى أحدهُم من المكتب باقي التحقيق.. يُدعى (شريف)، أوصله بي عند قدومه..

ثم اشرأبّ بعُنقِه قليلًا وهو ينظر نحو ناصية الشارع، ثم تحرّك مُبتعدًا وهو يُتابع:

- لا عليك، ها هو ذا تقريبًا..

ولم تمض دقيقتان حتّى كان الموكب في طريقُه نحو مكان الجُثث..

***

أنهى (شريف) مُكالمتَه التي أثلجت قلبَه..

مع (ميرنا) ابنتَه..

كانت تُخبره أنّها – وأمّها – عائدتين من السفر بعد أن قضيا أسبوعًا رائعًا في الغردقة..

لكم أشتاق إليهما..

وكان هذا سبب أدعى ليُنهي التحقيق بأسرع مع يُمكن ويعود لانتظارهما بالبيت..

ثم ابتسم في هدوء ووضع الهاتف في جيبه وأكمل ما كان يفعلُه قبل أن يُقاطعَه رنينُ الهاتف..

فأمسك مبضع مُخصص للتّعامُل مع الأدلة الهشّة وسحب الورقة الصغيرة من الكيس الذي سحبه من الخزانة، وهو يتأمّلها بدقّة..

كانت ورقة صغيرة مُجعّدة ومُصفرّة بأطراف مُحترقة، لم

تبدو لهُ مُريبة، مُجرّد ورقة عادية..

تبدو وكأنّها مقطوعة من مُذكّرة تقليدية، مسطّرة وبها سطر أحمر بأعلاها..

رفعها للأعلى في الضوء ليُمعن النظر فيها فوجدها مطوية على سطر مكتوب بالحبر لم ينتبه له من الوهلة الأولى..

وما أن فضّها بعناية ليقرأ المكتوب حتّى قطّب حاجبيه بشدّة وهو يُحدّق فيها بعدم فهم، قبل أن يُلقي نظرة شاردة على الجُثّة..

نظرة بدت لـ (عظيم) غريبة وغير مفهومة..

فاقترب منه ليُلقي نظرة على الورقة هو الآخر ولكن (شريف) انتفض انتفاضة خفيفة لم تفُت على (عظيم)، وسحب يده بحركة بدت تلقائية وهو يُعيد الورقة للكيس مرّة أُخرى ويضعه في جيب معطفه قائلًا بلهجة غريبة:

- لا أعتقد أنّها دليل لأي شيء، مُجرّد قطعة ورق مُحترقة بها عُنوان ما، يبدو أن صديقنا هُنا كان تائها.. المُهم، دعنا نُركّز في تشريح الجُثث وانتظار نتيجة التحاليل..

ثم التفت إلى (عظيم) قائلًا بلهجة مُحايدة:

- بالمُناسبة يا (أحمد) هلّا ساعدتني في مُراجعة تقرير

فحص الجُثة الرابعة؟ تلك السيدة النحيلة؟ أشعر أنّني نسيتُ شيئًا ما وأريد أن أتأكّد أنّنا على الطريق الصحيح.

نظر إليه (عظيم) لثوانٍ دون أن يرُد وهو يتمّعن في وجهِه، قبل أن يتّجه نحو الطاولة الرابعة ويُمسك الملف الخاص بها بغير اهتمام وهو لا يزال يُعلّق بصرَه على (شريف) الذي أعطاه ظهرَه وسحب هاتفه وهو يتّجه نحو النافذة ويطلُب رقمًا ما ويهمس ببضع كلمات فيه ثم يُنهي المُكالمة بُسرعة ويلتفت ليجد (عظيم) لا يزال ينظُر إليه وهو يسأله في ريبة:

- ما بِك؟ هل كل شيء على ما يُرام؟

هزّ (شريف) كتفيه في لا مُبالاة مُصطنعة وهو يُجيب مُبتسمًا ابتسامة غامضة:

- بالتأكيد، كُنتُ أُخبر (ميرنا) أنني سأتأخّر قليلًا معك..

ثم تظاهر بالانشغال في النظر عبر النافذة مُتجاهلًا نظرات (عظيم) المُتشكّكة وهو يتساءل عن التحوّل الغريب في تصرفاته..

ومعك؟ منذُ متى كان مُهمًا لهذه الدرجة؟

الإدارة بأكملها تعرف أن (شريف) لا يطيقه..

منذ أن أخذ مكان شريكه الذي توفّي في قضية ما منذ عدّة أشهُر و(شريف) يُعامله بجفاء ورسمية خاصةً وهو المُجبر عليه بأمر من القائد العام..

كان هو شخصيًا لا يُبالي كثيرًا فكان يعلم أنّها فترة مؤقّتة وسيترُك كل هذا وراء ظهره ويرحل..

فلم كل هذا الحنان المُفاجئ؟

ولم تمض دقيقتان حتّى أتاهُ الجواب..

على هيئة فردين أمن اندفعا عبر باب المعمل وانقضّا عليه في مُفاجأة منه شلّت حركته في الوقت الذي كبّله أحدهما بالأغلال المعدنية خلف ظهرُه..

دلف الرائد (مدحت) إلى المعمل في اللحظة ذاتها على صُراخ (عظيم) غير المُستوعب لما يحدُث وهو يهتف في (شريف):

- (شريف)!! ما هذا؟! هل جُننت؟! ماذا يحدُث هُنا؟!

تجاهله الرائد (مدحت) وهو يوجّه حديثه إلى (شريف) قائلًا في لهجة رسمية:

- أرجو أن تكون مُدركًا لما تفعله يا سيد (شريف)..

استمرت صرخات (عظيم) الذي بُح صوته من الصُراخ

المُستنكر وهو لا يفهم أي شيء..

رماه الرائد (مدحت) بنظرة ازدراء ثُم أشار لباب المعمل إشارة مُبهمة وهو يُكمل:

- وهُناك مَن يُريد مُخاطبتك بالخارج، أحد أفراد إدارتك..

هزّ (شريف) رأسه وهو يقول في شرود:

- لا وقت لهذا يا سيادة الرائد، فكما ترى هُناك ما هو أهم، أُريد أن أتأكّد من أمر ما ومن أنني أقوم بالصواب و....

- بل لازال لدينا الوقت الكافي يا سيد (شريف)..

ساد الصمت للحظة إثر الجُملة التي رنّت في المكان من ذلك الرجل الذي دلف إلى المعمل في نفس اللحظة فالتفتت إليه الأعيُن وهو يُتابع موجّهًا كلامه لـ (شريف):

- أنا اسمي (مُخلص)، ولدي ما يُهمّك أن تعرفُه..

ثم أشار إلى الجُثة الغامضة وأكمل:

- بخصوص الورقة التي وجدتها معه..

ارتسمت أمارات عدم الفهم على وجه الرائد (مدحت) وانهار (عظيم) أكثر وقد تأكّد أن الورقة حملت أمر إعدامِه بطريقة ما لا يفهمها، في حين سحبها (شريف) من جيبِه

وألقى نظرة أخرى على المكتوب..

«أنا هو أنت، لا تثق في أحمد، هو مَنْ وراء قنبلة الوزير»..

ثم أجاب:

- حسنًا يا سيد (مُخلص)، كُلّي آذان مصغية..

***

اندفع أحدهُم عبر باب المكتب بعُنف غير مُباليًا بطرقه، فانتفض النحيل في مكانه للحظة قبل أن يهتف بغضب فيه:

- ما هذا!! هل جُنّنت أيّها الوغد؟! هل تعلم أنّي أستطيع فصلك في هذه الحركة؟!

كان (الوغد) يلهث وكأنّما قطع المبنى كلّه عدوًا وهو يرُد مُتجاهلًا غضب النحيل:

- عملية الوزير فشلت وتم إلقاء القبض على المصري..

انتفض النحيل مرّة أُخرى في عُنف أكثر واتّسعت عيناه في ذهول، قبل أن يضرب بكفّه على سطح مكتبُه وهو يصرُخ في ثورة:

- ماذا!! قبل أقل من ٢٤ ساعة؟!!

ثم هبّ من مكانُه في عصبية بالغة وهو يصيح فيه:

- اللعنة! كيف فعلوها؟!!

كان يدور في المكان بعصبية بالغة وهو يُخاطب نفسه بصوتٍ هامس كالمجنون، قبل أن يهتف فجأة وقد تذكّر شيئًا:

- والقُنبلة؟! والتركيبة السرّية؟!!

أجابه الرجل بنفس اللهجة وهو يهُز كتفيه مُطرقًا برأسه إلى الأرض:

- في حوزة المصريين..

قالها من هُنا وتلقّى سيل من السُباب والشتائم بعضها لم يسمعْه من قبل، مصحوبًا بمحتويات المكتب التي طارت في اتجاهِه أو صوب الحائط فسحب نفسه من المكتب بسُرعة وهو يتفادى المقذوفات، تاركًا النحيل يكادُ يُجنّ أكثر وأكثر..

لقد حرصوا على السريّة التامّة من أول خطوة!

كانت خُطّة لا يشُق لها غُبار!

رمى النحيل بجسده على الكُرسي الوثير وشرد ببصره في ذهول..

كيف سيعود بالخبر لرؤسائه وهو مَن قرّر أن يقوم بالعملية كلّها بدون علمهم لتكون آخر نيشان على حائط انتصاراتُه

قبل تقاعُدِه!

أراد أن يأتي بعمل لم ولن يُضاهيه أي أحد في الصفوف..

أراد لاسمه أن يُدرّس للأجيال القادمة كمثال يُحتذى بِه في الدهاء والحِنكة..

والآن سيُدرّس بالفعل، ولكن كمثال للفشل الذريع والتخطيط الفاشل الذي يجب تجنُّبه..!

هذا بجانب احتمالية اتّهامُه بالخيانة لتخلّيه عن سر من أسرار الدولة.. التركيبة السرية للقُنبلة التي استولى عليها المصريون..

بعد تاريخِه الأسطوري.. يُتّهم بالخيانة!

وهو لن يسمح بهذا أبدًا..

على الأقل ليس وهو على قيد الحياة..

مدّ يده المستسلمة وسحب فتّاحة الخطابات من أمامُه وسحب نصلها من غمدِه ببُطء وتطلّع إليه وهو يلتمع بضوء المصباح بجانبه، وقد اغرورقت عيناه بدموع مقهورة صامتة ..

رفع كمّه قليلًا قبل أن يمُر بالنصل على رسغه بسلاسة..

وبدون لحظة تردّد..

انتظر ثوانٍ حتّى انفرج الشق الأحمر القاني في شُريانه، قبل أن يُجفّف النصل ويُعيده مكانه ويُرتّب مكتبه كما كان، ثُم استرخي أكثر في كرسيه وذراعُه مفرودة بجانبه نحو الأرض، ينسابُ منها شلال صغير من الدماء ليكّون بركة صغيرة تحتها أخذت تتسّع في انسيابية..

بهذا المُعدّل لن تمُر الدقيقة العشرون إلّا وقد انتهى أمرُه..

وليدرّسوا عنُه ما يشاءون..

«أنا أُنهي أسطورتي بنفسي» تمتمها بسُخرية مريرة..

(بيدي لا بيد عمرو) كما يقول المصريون..

أغمض عينيه وهو يُريح رأسه للوراء، وترك دموعَه تنساب بدورها على وجنتيه..

بدأ يشعُر بحزام من الضباب يُحيط بعقله..

وارتفع صوت نبضات قلبه إلى أُذنيه..

كان جسدُه يُرسل إشارات إنذار في كل رُكن منُه..

هذا الصقيع الذي بدأ يُهيمن على أوصاله ببُطء..

الخِدر الذي يفرض سيطرته على أطرافه..

هذه هي علامات انسحاب الروح من جسده إذًا..

وبآخر لحظات من الوعي تساءل في قرارة نفسه عن أي شيطان ساعد المصريين هذه المرّة.

نعم، من يُفسد خطّة بهذا الإحكام وهذه الحِنكة لابُد وأن يكون شيطانًا من الجحيم..

ولم يكُن يدري أن هذا الشيطان ما هو إلّا عامل الصُدفة..

صُدفة تمثّلت في لُعبة صغيرة سقطت عبر مرآة أثرية لا مثيل لها في أي مكان في العالم..

مرآة أثرية تحمل اسمًا خالدًا..

اسم يُمثّل الزمن نفسه..

(خرونوس)..

(تمت بحمد الله)